سلسلة رحلات في بلاد العرب (٢)

الاوضاع السياسية
في وسط الجزيرة العربية
عند نهاية القرن التاسع عشر

(حائل - القصيم - الرياض)

«نص رحلة البارون ادوارد نولده مبعوث روسيا
إلي نجد عام ١٨٩٣م / ١٣١٠ هـ»

عوض البادي



الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية
عند نهاية القرن التاسع عشر

الأوضاع السياسية
فى وسط الجزيرة العربية
عند نهاية القرن التاسع عشر

(حائل ، القصيم ، الرياض)

"نص رحلة البارون ادوارد نولده مبعوث روسيا
الى نجد عام ١٨٩٣م/١٣١٠هـ"

تقديم وتعريب وتحرير
عوض البادي

دار بلاد العرب للنشر

الطبعة الاولى

١٩٩٧

النشر و التوزيع:

ARABIA PUBLISHING HOUSE ,INC.
C/O/ WIS
2121 WISCONSIN AVE., N.W., SUITE 70
WASHINGTON ,D.C 20007 ,U.S.A
TEL:(202) 223-2668
FAX: (202) 659-0505

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

شهدت الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي توافد عدد كبير من الرحالة والمستشرقين والمبعوثين الدبلوماسيين اليها من مختلف المشارب والاتجاهات ، ولأهداف مختلفة. قدم هؤلاء ، وكل حسب الهدف الذي اتى من أجله ، الكثير من المعلومات التي حصلوا عليها في تجوالهم عبر المناطق المختلفة للجزيرة العربية ، عن شؤون و أوضاع هذه الجزيرة المجهولة، اما في كتب اصدروها او بتقديم تقارير خاصة الى الذين مولوا رحلاتهم عن ما شاهدوه وسمعوه . تتفاوت القيمة العلمية لما كتبه هؤلاء وما قدموه من معلومات، من رحالة او مبعوث الى آخر ، الا ان ما تم تقديمه بقي وسيبقى مادة اولية لا غنى عنهالأي باحث في تاريخ المنطقة السياسي والاجتماعي والاقتصادي في غياب الوثائق والسجلات المحلية الخاصة بالمراحل التي تناولوها .

نال بعض هؤلاء الرحالة والمندوبين شهرة واسعة في الاوساط العلمية والسياسية والشعبية، حتى ان كتاباتهم ومعلوماتهم وقصص مغامراتهم هي التي اعتمدت عليها التصورات والتحليلات الغربية عن المنطقة و شعبها ماضياً وحاضراً.

إن اكثر الكتابات حول شؤون الجزيرة العربية والتي حققت هذه الشهرة هي تلك التي كتبت باللغة الانجليزية ، والتي "تُرجم"، بعضها جزئياً او كلياً الى اللغة العربية. تعود هذه الشهرة والهيمنة لهذه الكتابات الى

انتشار اللغة الانجليزية عالمياً ، وارتباط هذه اللغة ماضياً بالامبراطورية البريطانية التي هيمنت على مناطق كثيرة من اركان المعمورة ، ولارتباط هذه الكتابات بمصالح واهداف وسياسات بريطانيا العظمى في المنطقة، وللاهتمام الذي اولته المؤسسات الجغرافية والعلمية في الغرب لمثل هذه الكتابات.

لا يعني ما سبق ذكره عدم وجود رحالة ومستشرقين و مبعوثين غربيين آخرين زاروا المنطقة وكتبوا انطباعاتهم واضافوا معلومات جديدة لما كُتب باللغة الانجليزية ، بل لنقل ان الاهتمام و الاشهار قد تركزا على جزء واحد من ادبيات الرحلات والاستشراق رغم أهمية بقية هذه الادبيات و تميز المعلومات الواردة بها. وان هناك حاجة ماسة للالتفات الى ما قدمه على سبيل المثال ما كتبه الرحالة والمستشرقون والدبلوماسيون باللغة الالمانية والفرنسية والروسية وغيرها حول شؤون الجزيرة العربية خلال القرن الماضي لما تحتويه من معلومات ذات قيمة علمية مهمة .

لتوضيح هذا الأمر سأقدم قصتي مع البارون ادوارد نولده هذا الرحالة والمبعوث الرسمي السري لروسيا القيصرية الى أمير حائل محمد ابن رشيد، الذي كان يحكم كامل منطقة نجد في حينه ، عام ١٨٩٣.

هذه القصة يمكن ايجازها بانني وخلال عملية بحث شاقة ومضنية لجمع ما كُتب عن التاريخ السياسي لشمال الجزيرة العربية وصلت الى نتيجة هي انه لا يمكن تقديم تصور كامل عن وضع تلك المنطقة خلال القرن الماضي وبدايات هذا القرن بدون معرفة جميع ما كتبه الرحالة الغربيون الذين زاروها. و بعد عملية مسح شاملة وجمع لكامل ماكُتب باللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية والقيام بترجمة ذلك اما شخصياً او بالاستعانة بمترجمين متخصصين ، تبين لي أهمية ما قدمه هولاء الرحالة الذين تجاوز عددهم

الخمسة عشر و منهم العالم ، والتاجر، والجاسوس ، والسائح ، والمبشر في الفترة ما بين عام ١٨٠٨م– ١٩٢٢م. لقد كانت المعلومات التي احتوتها هذه الكتابات من الأهمية بمكان بحيث لا يمكن لأي باحث او كاتب تجاهل هذه المعلومات او حتى كتابة اي شيء له قيمة تاريخية دون معرفتها (١).

كان اسم البارون ادوارد نولده هو الاقل تردداً بين هولاء الرحالة في عملية المسح ، وحتى اذا اتى ذكره فيأتي مقتضباً بدون توضيح لما قاله او كتبه ، وكثير من الكتب التي تناولت أدب الرحلات باللغات الانجليزية و الفرنسية والعربية لم تذكر اسمه على الاطلاق وبعضها يشير اليه بدون تقديم ما كتبه او التعريف به وبأهميته. أشار مؤرخ الرحالة الروس في الشرق الأوسط ب. م. دانتسيغ اليه بإيجاز قائلاً " زار نجد الموظف لدى روسيا في سنة ١٨٩٢ إدوارد نولده وهو الماني من ساحل البلطيق . وقد توجه عن طريق بيروت ودمشق الى حائل ، وزار مخيم مشيخة ابن رشيد في شمالي الرياض، ثم توجه الى طرابزون عن طريق العراق ، والاناضول الشرقية. ولمذكراته أهمية كبيرة جداً ، يشير فيها الى الو ضع السياسي في شبه الجزيرة العربية ، وزيارته لمخيم ابن رشيد ".(٢)

كما اشار اليه هوغارث ،احد أهم الذين أرخوا للرحالة الغربيين و صاحب كتاب " اختراق الجزيرة العربية :سجل تطور المعرفة الغربية عن الجزيرة العربية" مبيناً ان أهم ما كتبه هو وصفه للاحداث والتغيرات السياسية في وسط الجزيرة العربية .(٣)

اثار الغموض الذي يلف هذا الرحالة اهتمامي العلمي فسعيت للحصول على كتابه النادر الذي تم طبعه ١٨٩٥م بالمانيا، لمعرفة معلومات اكثر عن الكاتب ورحلته وهدفه. ولحسن الحظ وجدت ان الكتاب موجود بنسخة قلمية

في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض والتي لم تتوانى في تصوير بعض اجزاءه وتزويدي بنسخة منها . كما حصلت على نسخة مصورة كاملة منه من مكتبة الكونغرس الامريكي بواشنطن . ومن خلال عملية البحث تبين لي ان هناك ترجمة انجليزية لثلاث فصول ونصف الفصل من هذا الكتاب وقد وردت في كتاب صدر عن حائل في المملكة المتحدة عام ١٩٨٣م (٤) والذي بعد ترجمة هذه الفصول الى اللغة العربية تبينت لي أهمية ماكتبه ، فرأيت ضرورة اكمال ترجمة الاجزاء المتبقية والمتعلقة بالجزيرة العربية تقديمه للقراء دون تعديل او تبديل او تدخل والابقاء عليه كنص. وقد اكتفيت بوضع بعض الهوامش التوضيحية وبأقل الحدود .

تكتسب هذه الرحلة أهميتها من كونها رحلة سياسية بحتة لم يخف صاحبها شخصيته كغيره من الكثير من الرحالة الآخرين وإن كان لم يفصح عن سر رحلته والمهمة التي جاء من اجلها حتى في كتابه . كما ان ما كتبه نولده وخصوصاً في وصفه للاوضاع السياسية للمنطقة وعرضه وتحليله لتاريخ الاحداث يعتبر جديداً ومتميزاً وينم عن معرفة حقيقية بأوضاع الجزيرة العربية التي خصها بفصل كامل من الكتاب . كما ان ما يقدمه من معلومات له بعض الأهمية بالنسبة للباحثين المهتمين بالتاريخ السياسي لتلك المرحلة الغامضة.

بالاضافة لما سبق فإن نولده جاء في مرحلة اختفى فيها مفهوم الرحالة التقليديين وبداية عهد الرحالة الدبلوماسيين – وهو من أوائلهم – الذين يحاولون العمل على ترتيب اوضاع المنطقة بما يحقق مصالح بلادهم على ضوء سياسات التنافس الدولي التي كانت قد انطلقت من عقالها على المنطقة العربية لخلافة الامبراطورية العثمانية وتقاسم مناطق نفوذها .

يبرز السؤال هنا الآن : ومن هو البارون ادوارد نولده Baron Eduard Nolde؟

لا تتوافر معلومات كافية او وثائق عن شخصيته تميط اللثام عن الدور الذي كان يقوم به او الرسالة التي يحملها كمندوب لاستخبارات روسيا لأمير نجد ، و بحماية ورعاية السلطان العثماني ، الا ان ناشر كتابه قد قدم للكتاب بالتعريف به من خلال المعلومات التي قدمهااصدقاء المؤلف ، وهي المعلومات التي اعتمدنا عليها في التعريف الشخصي به و بحياته .

ولد ادوارد نولده عام ١٨٤٩ في مقاطعة لاتفيا ، وفي بيت من البيوت الألمانية النبيلة المقيمة في تلك المقاطعة التي كانت تحت الحكم القيصري الروسي . تلقى نولده تعليماً خاصاً حتى وصل المرحلة الثانوية، التي درسها في المدرسة الثانوية في ريجا(عاصمة لاتفيا ، احدى جمهوريات الإتحاد السوفيتي سابقا والمستقلة حالياً). بعد ثلاث سنوات في المرحلة الثانوية غادر نولده المدرسة قبل إكماله لهذه المرحلة . وفي عام ١٨٧٠ دخل متطوعاً في كتيبة الحرس اولان التي كانت متواجدة في وارسو ببولندا، ثم ترك بعد عام ونصف قبل ان يؤدي الامتحان ليصبح ضابطاً. وعندما قامت ثورة كارل في اسبانيا عام ١٨٧٢ انتقل اليها ودخل متطوعاً في صفوف "فرسان كارل " وبقي بها حتى عام ١٨٧٦ حيث وصل الى درجة ملازم وقاد هذه السرية . في عام ١٨٧٧ رحل نولده الى امريكا الجنوبية حيث شارك لمدة عام في القتال الدائر في حينه بين تشيلي و بيرو و كان يقاتل في صفوف قوات تشيلي ، ثم زار البرازيل والولايات المتحده . عاد نولده الى بطرسبورغ في روسيا في أواخر خريف ١٨٧٨، و هناك عُين في وظيفة حكومية "مفتش ضريبة خمور" . بدأ بعد ذلك يكتب في صحيفة بطرسبورغ " هيروالد " مقالات طويلة عن ضريبة الخمور وعن كيفية تحسينها. ونظراً لكونه على علاقة

دائمة بدوائر الجمعيه التقنية في بطرسبورغ فقد اختارته الجمعيه عضو شرف بها.

وفي عام ١٨٨٨ بدأ نولده رحلاته الى القسطنطينية و افريقيا وسوريا والعراق والجزيرة العربية وبقي مرتحلاً حتى انهى حياته منتحراً في اليوم الحادي عشر من شهر مارس ١٨٩٥ وهو في سنته السادسة والاربعين (٥).

لا تتوافر اية معلومات حول ظروف انتحار نولده ، في لندن التي عاد اليها بعد اكتمال رحلته الى نجد و كردستان و ارمينيا ، الا انه ترك في غرفته، في الفندق الذي عاش به طيلة عام كامل قبل انتحاره ، رسالة للسفارة الروسية ، والتي كان على اتصال بها خلال اقامته في لندن، يعلن انه انتحر برغبته وان له بعض المال في حسابه البنكي في لندن يطلب استخدامه لعمل مراسم دفن تليق بمكانته . تأكد بعد ذلك انه كان يعمل سرياً لحساب استخبارات القيصر الروسي . وان مفاوضاته مع ابن رشيد كانت تهدف الى تأمين مرفآ للبواخر الروسية على الخليج (٦).

قبل وفاته سلم البارون نولده الى احد الناشرين يومياته عن الرحلة ملقياً بذلك على عاتقه مسئولية نشرها، و هذا بدوره قدمها الى دار النشر "فيفج وولده " في براونشفاريج بألمانيا. قامت دار النشر باصدار يوميات الرحلة بكتاب باللغة الألمانية بعد اشهر قليلة من انتحار الكاتب بعنوان :

" رحلة في وسط الجزيرة العربية وكردستان وارمينيا في عام ١٨٩٢"

" Reise Nach Innerarabien , Kurdistan Und Aremenien 1892 "

احتوى هذا الكتاب على ستة عشر فصلاً تناولت رحلته الى وسط الجزيرة العربية والى العراق وكردستان وارمينيا . احتلت المادة الخاصة بموضوعنا خمسة فصول و جاءت في بداية الكتاب (٨)، و تناولت تفاصيل

مـختلفة عن رحلته في شـمـال الجـزيرة العربية وعن لقـائه بمحمد ابن رشيد ومـراسم استـقبـاله وبعض نقـاشـاته مـعـه بالاضـافـة الى مـعلومـات تاريخـيـة وسياسية عن المنطقة الداخلية للجزيرة العربية .

إنني لا أُقـدم مـا ورد في كـتـاب هذه الرحلة من مـعلومـات عن الأوضـاع السياسية في وسط الجزيرة العربية كحقائق لا تقبل المجادلة ولكنها في كثير من جوانبها تناقض ما هو متعارف عليه على انه حقـائق في بعض الكتـابات التـاريخية والسياسية وخـاصـة المتعلقة بأحـداث المنطقة خـلال تلك الفتـرة . و كذلك لتقديم نموذج مـختلف من الرحـالة الذين كتـبوا باللغـات غير الانجليزية واثارة الاهتمام بما كتبوه لاماطة اللثام عن حلقـات مفقودة او غير معروفة في عملية البحث عن الحقيقة التي لا تنتهي ابداً وإثارة النقاش حولها .

واخيراً اترك للقارىء متخصصاً او باحثاً ، مؤرخاً او دبلوماسياً ، الحكم على ما جاء به نولده من معلومات ، دون اغفال الحاجة الى مزيد من البحث عن دوره السياسي المجهول واكتشاف حقيقة هدف رحلته و تفاصيل مفاوضاته .

عوض البادي

الرياض

١ يونيه ١٩٩٧

الهوامش :

(١) عوض البادي . *الرحالة الاوروبيون في شمال الجزيرة العربية : بلاد الجوف ووادي السرحان* .الرياض : دار بلاد العرب للنشر ، ١٩٩٧.

(٢) ب. م. دانتسيغ . *الرحالة الروس في الشرق الأوسط* . ترجمة وتعليق معروف خزنه دار، بغداد : دار الرشيد للنشر ،١٩٨١.

(٣)

David George Hogarth.*The Penetration of Arabia : Record of the Development of Wstern Kowledge Concerning the Arabian Peninsula*. New york:frederick A. Stokes Co, 1904. p 255..

(٤)

Philip Ward, Ha'il : *Oasis city of saudi Arabia*.Cambridge:The Oleander Press,1983.pp 611- 665.

(٥)

Baron Eduard Nolde, *Reise Nach Innerarabien,Kurdistan Und Aremenie 1892*. Braunschweig : Druck und Verlag Von Friedrich Vieweg und Sohn,1895.pp V-VII.

(٦)

H.V.F.Winstoe, *The Illicit Adventure*. London: Jonathan Cape,1982.p.11

(٧)

Baron Eduard Nolde, pp.3-107.

الفصـــل الاول

من دمشق الى الحيانية

استخدام الوسطاء والخدم – الحصان العربي هنجسن مانك ـ شراء الجمال ـ الأهمية القصوى لقرب الماء للسفر في الصحراء ـ الحراسة التركية ـ السفر من دمشق ـ طول القافلة ومكوناتها ـ أسلوب الحياة في رحلة الصحراء ـ التوقف في بصرى ـ الدخول الى الصحراء ـ الصخور السوداء سواد الحبر ـ الوصول الى كاف ـ حساب المسافات بواسطة ساعات الجمال ـ مراعي الرولة ـ عصابات اللصوص ـ البرودة في الصحراء ـ شكوك الحاكم جوهر ـ الاستقبال الأول ـ معنى الجوف وأهميتها ـ الطريق الى حائل ـ غدير مياه المطر في الصحراء الحمراء ـ الدخول الى النفود ـ البرد الشديد وسقوط الثلوج في الصحراء ـ المغامرة الفاشلة لقطاع الطرق ـ صيد و متابعة أحد جمال السباق ـ وصف النفود ـ الحياة الفطرية ـ قلعة الحيانية ـ الآبار القديمة جداً.

بعدما أعددت العدة الشخصية وحصلت على التموين اللازم في لندن من الهدايا التي لايستغنى عنها عند السفر الى الشرق ، رحلت من هناك بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٨٩٢ آخذاً طريقي عبر مرسيليا وبيروت ثم دمشق التي وصلت اليها في ١٦ديسمبر ١٨٩٢. أثناء رحلات سابقة لي في كردستان والعراق وسوريا تعرفت على اثنين من المرافقين واحتفظت بهما ليبقيا في خدمتي. و هذان المرافقان يفهمان جيداً أفكاري وكيف انني انوي القيام برحلات طويلة في المشرق ، و يفهمان ايضاً كيفية التعامل مع الانواع المختلفة من الناس. لقد أمكنهما في السابق تحقيق سعادتي الى الدرجة التي جعلتني أُقرر ان أحتفظ بهما واستخدمهما مرة أخرى في رحلاتي الى داخل الجزيرة العربية لأهميتهما الكبرى في تحقيق أهدافي . الرفيق الأول منهما هو نصرالله ، وهو رجل عربي من الموصل و يعرف معرفة تامة خمس لغات هي العربية والتركية والكردية والكلدانية والروسية . والثاني جودو (Guedou)، و هو عربي من بغداد ، و كان يتحدث اللغة الفرنسية بطلاقة. كما انه لا يعرف لغته معرفة تامة مع جميع اللهجات سواء في الفهم أو التحدث بها فحسب بل كان يجيد كتابتها بقدرة كبيرة . ولذلك كان لي نعم السكرتير بالنسبة للمراسلات العربية.

بناء على تعليمات مسبقة مني وجدت هذين الرجلين بانتظاري في دمشق، ومعهما الخدم الخاصون بهما، وخدم الخيل ، وأخيراً أيضاً الفرس العربي الذي حملني في الرحلة السابقة . كان هذا الفرس قد ازداد سمنة أثناء فترة الشهور الخمسة التي غبت فيها عن دمشق بل أصبح متعاليا ، وكان لا يبدو في مخيلته اننى انوي امتطائه للسفر مسافة تزيد على ٥٠٠٠ كيلومتر.

وبالإضافة الى هؤلاء الرجال قمت بتوظيف شيخ تدمر محمد بن عبدالله لقيادة ركب الابل في جميع المناسبات . و قد كان من أهم أعضاء الفريق في رحلتي، و قد أتى الينا مع عشرة من الجمالين الذين أحسن اختيارهم في الوقت المحدد تماماً .

رغم كل هذه التجهيزات التي تمت ، فقد ظل عليّ ان اقوم بكثير من العمل قبل ان أفكر في الرحيل ففي مثل هذه الرحلات المهمة لاشك ان الأمر يتطلب الكثير من الحسابات والترتيبات الصحيحة وان النجاح يتوقف على التجهيز والتخطيط المسبق .

كان يجب علّي شراء الإبل ، وطبيعي ان تكون من النوع الممتاز اذا كنا نرتب لرحلة في الصحراء تزيد على ٣٠٠٠ كيلومتر. و كذلك شراء المزيد من الخيل التي يجب تجهيزها، وإستئجارالمزيد من الأفراد للخدمة ايضاً. كما يجب اتخاذ الترتيبات لحمل مخزون من جميع انوا ع الاطعمة ، وكذلك وربما الأهم من كل شيء قِرب الماء ، إذ انه لايكفي شراء القرب بل يتعين قياسها بعناية واختبارها ووزنها.

ان دمشق قد تكون هي المكان المناسب للتأكيد على أهمية هذه الاحتياطات حتى ولو اعتبرنا ذلك تمرينا لرحلات صحراوية قادمة قد أقوم بها تحقيقاً لمتطلبات العمل و رغبات الارتحال في الجزيرة العربية. ان ذلك لن يتحقق بنجاح الا إعتماداً في المقام الأول على قوة الابل التي يتم تغذيتها بعناية وعلى المخزون الكبير من المياه الذي سيكون تحت تصرفي في الرحلة .

بأوامر خاصة من جلالة السلطان العثماني أُرسلت معي فرقة حراسة شرف من الجنود الأتراك رافقتني حتى الجوف أي مسافة ما يقارب ٧٠٠ كيلومتر من الرحلة . وكانت هذه الفرقة تتكون من ضابط و ٢٥ من الرجال

المميزين مع خيولهم ، وكلهم من الأكراد الذين لا يُتوقع منهم أي تهاون أو ضعف من أي نوع كان في مواجهة أي مهاجم لي من البدو .

كل هذا تم لحسن الحظ في ١٤ يوماً ، فأصبح بامكاني في أول يناير عام ١٨٩٣ مغادرة دمشق . كانت حقاً قافلة مهيبة : ٣٦ رجلاً في الخدمة و٤٠ جملاً و ٦ خيول وعدد مختلف من البغال والحمير ،يضاف الى ذلك الحراسة التي تتكون من ٢٦ رجلاً ومعهم امتعتهم محمولة على ٢٥ جملاً ، وكانوا يشكلون قافلة وحدهم.

ونظراً لان بداية المسيرة كانت في أرض بها قرى وبها ماء فلم يكن هناك ما يستدعي العجلة في مسيرنا . وبعد بضعة أيام من التمرين الجيد اتضح ان تجهيز مخيم المبيت لم يعد يستغرق أكثر من ٣٥ إلى ٤٠ دقيقة . وبعد هذا الوقت كان يمكن تركيب الـ ٨ خيام الخاصة بي و ال ٦خيام الخاصة بالعسكر لتكون جاهزة تماماً.و نيران الطبخ قد تم إشعالها و أول وجبة طعام لي قد قُدمت وتتكون من زجاجة نبيذ وسردين أو لسان بارد مع البسكويت. أما الغداء أو بالأصح العشاء فيكون جاهزاً بعد ٤ ساعات ، وعند الإستعجال كان يتم بشكل اسرع . وكان الاكل يتكون في الأساس قبل كل شيء من حساء من الدرجة الأولى لي وحدي و يتكون من ٣ دجاجات وبعض لحم الضان المشوي ثم بيض او أرز ثم بسكويت مع النبيذ والقهوة . ومع الوقت فان اتباع نظام غذائي واحد لمدة طويله يصبح متعباً ولايجعل الإنسان في حالة طيبة بدرجة كافيه بل على العكس يسبب له السمنة .

بعد خمس مراحل من المسير وصلنا الى (بصرى)التي لا تبعد اكثر من ١٣٠كم من دمشق وهي المركز الرئيسي لحوران وتمثل الحدود الحقيقيه للإمبراطورية التركية من هذه الجهة .

ونظراً لهطول أمطار غزيرة فقد أصبحت الأرض زلقة للدرجة التي لاتستطيع الجمال السير عليها، لذلك فقد بقيت في بصرى لمدة ٣ أيام أستغللتها في عمل أحسن مايمكن عمله في مثل هذه الظروف . لقد قمت بمقايضة بعض الأشياء مع الدروز الذين يسكنون الجبال المجاورة بالإضافة الى زيارة الآثار الموجودة في بصرى بقدر المستطاع وخاصة القلعه التركية وثكنات الجيش الروماني وهي كلها ذات أهمية قصوى ومازالت محتفظة بكيانها على أحسن وجه . لحسن الحظ أستطعنا ان نعبر الأرض الزلقة و ان نصل بعد ظهر يوم ٩ يناير الى قرية الدروز التي لاتبعد سوى ثلاث ساعات ونصف الساعة من بصرى وهي قرية دبين .

ومن هنا ، وبصفة عامة ، ظلت قافلتي تسير على أرض صلبة . وفي الأيام التالية كان السير في الصحراء حقيقة تاركين عن يسارنا قصر صلخد العالي المطل على المنطقة وتاركين عن اليمين القلعة الرومانية القديمة في الازرق . أصبح سفرنا في خط مباشر الى كاف التي وصلنا اليها بعد ٥ أيام من المسير بمعدل ٤٠ كيلومتراً لليوم الواحد .

في هذه الصحراء القاحله التي قطعناها يرى الانسان الجزيرة العربية في شكلها الصخري وهي تمثل الوحدة والشدة وبشكل ما تظهر في نوع من الجلال الشاعري من وقت لآخر. كانت الصحراء تبدو مستوية ومع ذلك فهي شامخة تطل علينا بعلو كما قلت بشكلها الصخري . ومع ان الأرض كانت تبدو مغطاة بطبقة بركانية المصدر فهي تتكون من صخور تبدو صلبة وغامقة السواد كما لو كان مصدرها النيازك . ويرى الإنسان في الجزيرة العربية، بشكل يكاد يكون متكرر، مجموعات كاملة من الجبال الصخرية ذات لون الحبر الأسود بحيث تحدث تأثيراً عجيباً،ثم تجد نفسك على سهل يمتد لعدة

اميال لا يوجد به أي بقعة فاتحة اللون ، كما لو كانت الأرض مغطاة باللون الأسود تماماً. كنا نجد أحياناً في الطريق بعض مياه الأمطار ومع ذلك فطيلة المسافة من دبين الى كاف التي تقارب ٢٠٠ كم لم نجد سوى بئرمزدوجة (تسمى آبار الهزيم) وحتى هذه لاتوجد في وسط المسافة بل على مسافة سبع ساعات ونصف الساعة من كاف .

في ١٤ يناير ١٨٩٣ وصلت الى بلدة كاف التي تمثل عُشّا صغيراً غير ذي أهمية يسكنها على أكثر تقدير مابين ٢٠٠ الي ٣٠٠ شخص يعيشون حياتهم على زراعة بضع نخيلات وكذلك جمع الملح الذي يوجد على سفوح التلال والذي يظهر كما لو كان قشرة تغطي تلك التلال.

وبغض النظر عن ذلك فهذه القرية تعتبر مكان التقاء للبدو الذين يستثمرون فيها ما لايحتاجون اليه مما يمتلكونه لفترة معينة خلال العام، لذلك فهي تعتبر بلدة ذات أهمية كبيرة عندهم ، و لهذا السبب ايضاً فهي بمنأى عن غزواتهم . وحتى يمكن لأهل كاف حماية انفسهم ضد المصائب الأكثر شدة فإنهم يضعون انفسهم رعايا لابن رشيد أمير حائل أو كما يقال عنه باختصار أمير نجد.

لم يكن هذا الأمير يهتم كثيراً بشرف كونه أميراً لقرية كاف ، حيث قال لي هو نفسه ان مايأتيه من خراج من كاف قليل جداً ، فأهلها فقراء ولايمكن ان يكونوا تحت مسؤليته . ان حماية قرية بعيدة بهذا القدر وتأمين الحياد لها يتطلب دفع ضريبة مناسبة تسمح له بتجهيز الجيوش والدخول في الحروب .

كما قلت كاف مكان فقير جداً وقد اشتريت بنفسي من هذه القرية كل ماكان متوفراً لدى اهلها من الدجاج وكان عددها ٢٦ دجاجة فقط - أما الخراف فلم تكن متوفرة ، فقط بعض الماعز وصغارها عُرضت للبيع . وبهذه

الكمية لم يكن من المستطاع عمل أي شيء إذ في كل المشرق لايحب الناس حتى الفقراء منهم أكل لحم الماعز الذي لايأكله إلا المرضى . وبذلك بقيت بدون ضان وكان ذلك يمثل حساسيه شديدة لي فقد كنت في هذا الشان أضع الآمال العريضة على كاف.

في اليوم التالي مباشرة لوصولي الى كاف اكملت المسيرة في اتجاه الجوف التي وصلت إليها يوم ٢٣ يناير .

على بعد مسافة ساعة ونصف الساعة من كاف توجد قرية "اثرى" وهي قرية بنفس حجم كاف.

إنني أُقدر المسافة من دمشق الى كاف بواقع ست وسبعين ساعة ونصف الساعة من ساعات سير الابل (اي ٣٣٧,٥ كم). ومن كاف الي الجوف بسبعين ساعة (اي ٣٥٠ كم) وبذلك تكون المسافة الإجمالية من دمشق الى الجوف ٦٧٨ كم. و كانت قافلتي تقطع في المتوسط ٥ كم في الساعة. وهذا التقدير كنت أعتمد عليه حيث كنت أحسب الدقائق والساعات للمسافات المعروفة خصوصاً وان الابل كانت تسير بخطى منتظمة . وكنت أقارن هذه الساعات والدقائق مع المسافات المعروفة . و كان من الطبيعي مراجعة وتقدير هذه المسافات بعناية. لذا فانني أعتقد انه في هذه الحسابات لايمكن ان يزيد الخطأ أبداً عن ٢ الى ٣ كم في مسيرة اليوم الواحد.

من كاف عبوراً بقريه اثرى كانت الأرض مرة أخرى تتشكل من نفس الصحراء الموحشة ويغلب عليها الطابع الجبلي الصخري الذي يتغير أحياناً الى تلال. وهذه المنطقة كلها تماثل أحد سهول قبيلة الرولة التي تشمل تقريباً نصف كل شمال الجزيرة العربية مابين دمشق وبغداد . وكصديق شخصي لكبير مشايخ الرولة صطام ابن شعلان فلم أكن أخشى أي شيء من الجزء

الأكبر من هؤلاء البدو . ويقف صطام في قمة قوته على رأس خمسة عشر الف مقاتل، وهو عدد كبير جداً في الجزيرة العربية. وللأسف علمت فيما بعد ان هذا العربي القوي والسامي قد ُقتل في صيف ١٨٩٣ اثر عودته من رحلة الى القسطنطينية حيث تم استقباله هناك استقبالاً حافلاً.

قابلت في الواقع ، مرتين ، عصابات من اللصوص ، كانت بالمقارنة برفاقي وقافلتي في موقف الضعف (لا يزيد عددهم عن مائة فارس سيىء التسليح لدرجة انهم شعروا بالسعادة والفخر عندما وافقت على ان أشرب معهم فنجاناً من القهوة.

عندما غادرت دمشق في وسط الشتاء بدون توقف معظم الوقت وفي خط مباشر كنت آمل وأعتقد ، انني سأخرج بسرعة من منطقة البرد الشديد. لكن ذلك لم يحدث بل العكس تماماً حيث انني كلما اتجهت الى الجنوب بدأ الجو أكثر برودة . شيئاً فشيئاً نزل الترمومتر الى تحت درجة التجمد ومع ذلك كنا نتواجد على خط عرض القاهرة كما كنا على ارتفاع لايزيد عن ٧٠٠ الى ٨٠٠ متر فوق سطح البحر.

قبل ان نصل الى الجوف بقليل بعثت نصر الله للقيام حسب التقاليد الشرقية بابلاغ زيارتي الى حاكم هذا المكان (جوهر) . لقد اصاب هذا الأخير نوع من الخوف من رؤية هذا العدد الضخم من الفرسان والجنود الأتراك الذين ظهروا له كأكبر قافلة مسلحة جبلية فقرر ألا يسمح لنا بالدخول بقدر مايستطيعه.

عندما وصلنا الى البوابة الرئيسية للجوف وجدتها مغلقة وعندما سألت لماذا لا أرى نصرالله أو أيا من الجنديين المرسلين الى هناك، شرح لي المحيطون بي من العرب ان نصرالله موجود بالقصر وينتظر هناك أوامر

الحاكم . وعندما سألت مرة أخرى أين يوجد هذا الحاكم قيل لي ان الحاكم موجود داخل البلدة وسوف يظهر قريباً بطبيعة الحال. كنت أحتاج الى شرب بعض القهوة ولكن أين؟. اقترحت ان نأخذ القهوة في الميدان أمام البوابة واردت لهذا الغرض احضار بعض السجاد، وفوجئت بثورة العرب بشدة لهذا الإقتراح و أوضحوا لي ان مثل هذا التصرف - أجنبي يشرب قهوة الجوف أمام البوابة المقفلة - سيجلب العيب والعار على القصر الى الأبد .

في هذه الأثناء ظهر نصر الله على المنصة الموجودة على البرج المتحكم في البوابة وأوضح لي انه قد تم تجريدهم من سلاحهم - هو والجنديين- وانه محتفظ بهم في القصر كأسرى ويرجو ان أكون على درجة كبيرة من الحرص والا أضع نفسي شخصياً بصفة خاصة في مثل هذا الفخ الخطير والمضحك . أي انه علّي الا أسمح لنفسي ان أقترب من البوابة تحت أي حجة مثل شرب القهوة أو الدخول الى الممر المظلم الموجود بجانب القصر، وهو ماكان العرب يمنعونني منه تماماً. في مثل هذه الحالة كان يمكن ان تسير الأمور الى المزيد من سوء الفهم وعدم الاطمئنان. وأخيراً ظهر جوهر فوق البرج ، فاقترحت عليه الاتفاق على الأسس التالية: الايخشى مني أي شيء حيث انني في رحلة سلمية في إتجاه نجد بغرض مقابلة سيد جوهر نفسه الأمير ابن الرشيد و القيام بزيارته . وان وجود بعض الجنود الأتراك له مايبرره حيث انني حتى هذه اللحظه كنت أسافر في بلاد خطرة وخارجة على القانون ولذلك كنت في حاجة الى حراسة، والآن وبعد ان وصلت الى مناطق الأمير لم يعد لهذه الاحتياطات أي مبرر وانه يجب ان يتم ماسبق التخطيط له من قبل . أي ان الجنود الأتراك سيرجعون في الحال الى ثكناتهم في دمشق وهو ماسيتم حتى قبل سفري من الجوف ، كما انني أتحمل مسئولية تصرف جنودي وكذلك الأفراد الآخرين.

كـان من الواضـح في هذه الحـالة ان جـوهـر نفـسـه مـتـأكـد من انني أستطيع بسهولة اقتحـام قصـر الجوف بالقوة ، وهـي عمليه لن تكلف أكثر من فردين وبصـفة خاصـة إذا هاجمنا البوابه ليلاً أو دمرناها بـالحريق . ولكن من الطبيعي انه ليس لدى أي تفكير للقيام بمثل هذا العمل ، وعندما يثق جوهر بي ويظهـر لي حسن نواياه بان يترك نصرالله يخـرج الينا عندئذ سـأظهر له أيضـاً حسن نواياي بان أذهب اليـه وحدي الى القصـر. وحتى يطمئن جوهر من انه ليس لدينا نوايا لمهاجمـة البوابة وإقتحـام البلدة فقد اقترحت ان ارجع الى الوراء بعـيـداً عن البـوابة مع جـمـيـع الأفـراد المسلحين لكي لا يكون هناك،عندما يطلق سراح نصرالله ، أية مخاطر من اقتحام البوابه أثناء فتحها لفترة قصيرة ثم قفلها .

لم أكن أبداً أشك في أمـانة ووفاء العرب وبعدهم عن الخيانة ، ولي كثير من التـجـارب التي تثبت ذلك ، والآن بإمكاني اختـبـار خبـرتي السـابقـة لأجد المثال الحي لهذا الطابع من التصرفات .

أوضـح جوهر باختصـار انني إذا أعطيت كلمة شرف أمام رجالي و أمام رجاله فإنه سيأخذ أقتراحي مأخذ الجد وسوف ينفذه.

وعندمـا انسـحـبت الى الوراء بعـيـداً تم اطلاق سـراح نصـرالله ، وبعـد دقـائق من ذلك دخلت انـا بنفـسي إلى القـصـر . ربمـا كـانت هذه الخـطوة مني مخاطرة ولكنني لم أكن أستطيع عمل غير ذلك، أذ كيف كان يمكن التفكير في رحلة ناجـحة بدون عمل ذلك ، فلو كنت بقيت كعدو خـارج القـصـر ، فـقد أفـقد كل أمل في الحـصـول علـى المزيد من التموين والمسـاعدين من الجـوف . لقد تم في الواقع كل شيء على خير وجه.

كان جوهر يقف خلف البوابه تماماً في انتظار دخولي، وعندما دخلت أقفلت البوابة على الفور، وكان جوهر محاطاً من رجاله ذوي الأهمية وفي عصبية ظاهرة قبّل جوهر يدي وعلى أثر ذلك أسرعت فقبلت جبينه مع الإسراع باحتضانه.

بعد ذلك تم إدخالي الى الصالة الرئيسية (القهوة) وذلك من خلال ممرات وصالات مظلمة الى حد ما. وفي الطريق كنا نرى المشانق وغرف التعذيب . لم يكن ذلك بالمنظر المريح لاسيماعندما كنت أفكر انني في هذه اللحظه وحيد تماماً ووقعت في فخ عجيب حيث أتواجد في قبضة السيد جوهر . ومع ذلك فقد سارت الأمور سريعاً وبشكل ممتاز . لقد أخذت السيف وأعطيته له للاحتفاظ به ، ثم القيت بنفسي في الصالة أمام المدفأة المشتعلة ثم قدمت لي القهوة وماكادت شفتاي تمسان الفنجان حتى سمعت صوت جوهر يعطي الأمر بسرعة فتح البوابه . وقد حدث ذلك بسرعة مسرحية فلم تكد تمر دقيقة حتى امتلأت الصالة بأكثر من ٥٠ من رجالي المسلحين حيث جلسوا لشرب القهوة أيضاً.

ومنذ هذه اللحظة قامت العلاقات الوطيدة فيما بيني ورجالي من جهة وبين جوهر والقصر ومدينة الجوف من جهة أخرى.

تعتبر الجوف بالنسبة للجزيرة العربية موقعا ذا قيمة كبيرة إذ لايقل عدد سكانه عن ١٠٠٠٠ الى ١٢٠٠٠ ساكن . المياه طيبه وغزيره والحدائق جميلة وممتدة والتمر في الجوف له بحق سمعة طيبه كأحسن تمر في العالم وذلك بسبب مذاقه الطيب .

لم أجد أي صعوبات في الجوف : كثير من الغنم والعجول والدجاج يمكن شراؤها كما يحلو لي وكذلك كل ماكان يلزم الرحلة في الصحراء من التموين مثل تجديد سروج الخيل والابل.

كانت فكرتي في البداية ان أبقى يومين في الجوف للراحة الا ان رياح رمليه شديدة منعتني و منعت الجنود من الرحيل ، فبقينا يومين أضافيين. تم قضاء هذا الوقت في ظروف ممتعة على الأقل من وجهة نظر حياة الصحراء. كنت انا وجوهر نتبادل دعوات الأكل ، كما انني و رجالي والجنود وكذلك أفراد القصر كنا نعيش في وضع بهيج. وهنا رأيت لأول مرة أحد المسلمين في الجزيرة العربية وهو السيد جوهر يأكل طعاماً أوروبياً بالكامل ، وهذا الحدث بدا عجيباً للآخرين أيضاً الى درجة أجتماع عدد ربما يبلغ الفين من الناس للتمتع بهذا المنظر ، و كيف ان جوهر يتذوق طعاماً يتكون من الحساء والسمك والخضروات المعلبة كما يشرب شيكولاتة وكذلك قهوة أمريكية ثم بعد ذلك يدخن سيجاراً من هافانا. وفي هذه الأثناء اختار جوهر دليلين على درجة عالية من الكفاءة حققا فرحتي، حيث كان عليهما مساعدتي في عبور صحراء النفود .

كان هناك اتجاهان فقط يمكن اختيارهما لعبور هذه الصحراء نحو حائل . أحدهما : و هو الطريق المعتاد و هو الذي سلكه بلغريف و بلنت ، و يمر عبر قرية وقصر "جبة" ، أما الطريق الآخر فيتطلب ترك جبة الى يميننا والمرور عبر قصر "الحيانية" ومن هناك نحو حائل . في كلتا الحالتين لا تكون الجوف هي آخر نقطه خروج بالنسبة للقادم من الشمال بل قرية تقع على بعد ٣٦ كم الى الجنوب الشرقي تسمى قارا وعلى بعد ١٠ كم من الشمال منها تقع سكاكا و هي أيضاً تحت حكم جوهر و لها نفس الحجم والأهمية التي للجوف وكذلك بها قصر يشبه قصر الجوف.

بعد ان رحل الجنود الأتراك خلال الليل ، سافرت يوم ٢٨ يناير من الجوف فوصلت عصر نفس اليوم الى قارا وقمت بإقامة معسكري أمام هذه

القرية. لقد اخترت الطريق الثاني للوصول الى حائل لانه لا يعرف عنها الكثير، وبذلك تكون لها الأهميه الكبرى بالنسبة لي .

سافرت في اليوم التالي مع قافلتي في البداية الى بئري الماء المسميتين بخوعا، و تبعدان مسافة ٢٤كم تقريباً عن قرية قارا، وهما آخر موقع ماء قبل "الحيانية" . توقفت في خوعا بعض الوقت حتى يمكن لي ان أستفيد حتى آخر لحظة من هذه المياه قبل المسير عبر صحراء النفود . والبئران الموجودتان هناك عميقتان جداً ولايبدو عليهما انهما غنيتان بالمياه . كما ان المياه ساخنة وسيئة لدرجة انه لاداعي لذكرهما، ولكن بالقرب منهما يوجد مجمع لمياه الأمطار في شكل بحيرة وباقية على الدوام تقريباً. ويبدو ان البدو يحاولون الاحتفاظ بوجود هذه البحيرة سراً، ولكن نظراً للعلاقات الطيبة مع جوهر ومع الدليلين فقد وُضع هذا الامتياز أيضاً تحت تصرفي . يقع مجمع مياه الأمطار هذا الى داخل النفود ويعتبر هذا الموقع أكثر أماكن هذه الصحراء احمراراً. لقد ظللت لمدة طويلة منفعلاً من رؤية هذا المنظر "للصحراء الحمراء "متسائلاً هل هذا حقيقة أم ان الأمر لم يكن سوى التناقض بين هذه الصحراء الحمراء وماسبق ان رأيته وذكرته من لون الفحم الأسود للمناطق التي سبقت وصولي للجوف . مع استمراري في المسير وجدت ان لون النفود لم يكن بالأحمر الشديد غير العادي الذي ذكرته الليدي بلنت وزوجها على طريق "جبة" . أما هنا في خوعا فكانت الأرض التي يمشي الإنسان عليها وكذلك الصحراء وجميع الصخور المحيطة بالمنطقة تبدو كما لو كانت قد صُب عليها الدم عندما تكون الشمس ساطعة.

بعد وقت قصير بدانا نسمع أصوات الوحوش في هذا المكان الموحش وهي الوحوش التي يجتذبها وجود الماء، وكنا نسمع اصوات الثعالب

واصوات الضباع العديدة التي تشبه الصريخ و أخيراً زئير الفهود الذي يكسر سكون الليل .

أما الماء الذي كان مقدراً ان نأخذه من خوعا ليكفي مدة أسبوع فلم يكن طعمه سيئاً ومع ذلك فقد كان لونه يميل الى الاحمرار كما لو كان حساء جيدا للكابوريا الى الدرجة ان حصاني كان يتردد في الشرب من هذا الماء في النهار حتى عند العطش الشديد ، ومع ذلك فلم يكن ذلك يمنعه عند دخول الظلام ان يشرب منه ملء معدته. وقد أتضح ان هذا اللون كان من التركيز بحيث ان قِرب الماء ظلت محتفظه باللون مماجعلنا حتى بعد عدة أسابيع لانزال نشرب من ماء أحمر .

في ٣٠ يناير، بدأ المسير الحقيقي في صحراء النفود ذات الشهرة العالية أو بالأصح المكان الموحش والخطير حقاً . كان معنا أكثر من ١٢ جملاً محملاً بالماء ، ورغم ذلك كانت رواحلنا محملة أكثر من اللازم لانني أردت ان أتأكد بنفسي من نتيجة ختياري للابل في دمشق من أفضل الانواع ، وهي ذات قيمة لاتقدر بثمن وكان يتم تغذيتها أفضل مايكون الغذاء . ولهذا السبب اعطيت الشيخ محمد الأوامر المشددة بالحفاظ على سرعة سير الإبل المحّملة بواقع ٦ كم في الساعة وعلى الا تقل السرعة عن ٥.٥ كم في الساعة وان يحافظ على ذلك . كان أداء الابل اداء ممتازاً، اذا أخذنا في الاعتبار كثرة الرمال وصعوبتها وكذلك الحمولة التي لم تكن تقل عن الحد الأقصى الذي يقدر ب ٧٠٠ رطل.

فيما بين "خوعا" و"الحيانية" كان مؤشر البارومتر يوضح ارتفاع الأرض في النفود وكان الارتفاع متذبذباً فيما بين ٨٠٠ متر و ١٠٠٠متر ، وكان هذا الارتفاع على خط عرض (٢٧.٥ - ٣٠ درجة) ولكن ذلك الارتفاع

لم يكن سبباً في البرودة الشديدة ولم يكن يبررها وهي البرودة التي كنا نتحملها وكانت تزداد سوءا يوما بعد يوم . كان الموضوع هو القصة القديمة وهي ان الرمال موصل رديء للحرارة وتؤثر بدرجة كبيرة على درجات الحرارة. كان النهار دافئا ومريحا الا ان الليل يمتاز بالبرودة الشديدة حيث تهبط درجة الحرارة الى اقل من عشر درجات مئوية ، ولم أكن ابداً قد عرفت هذا الهبوط الشديد والمفاجىء في الترمومتر سواء في المكسيك أو جبال الهملايا أو القوقاز أو أرمينيا العليا، مثل ماكان عليّ ان أراه هنا في النفود.

وهنا للتوضيح انقل بعض مذكراتي المسجلة في دفتر الرحلة وهي أمثلة متعددة:

١ فبراير: يوضح الترمومتر في الساعة ١٢ ظهراً ان درجة الحرارة ٥.٥ درجة مئوية وترتفع بعد ذلك مع الرياح شديدة البرودة ببطء شديد. وفي الساعة ٢ بعد الظهر تكون درجة الحرارة ٦ درجات ، و في الساعة ٤ تكون درجة الحرارة ٧.٥ ثم يجري سائل الترمومتر بسرعة الى أعلى وذلك حتى يصل الى ٢٥.٥ درجة مئوية في الساعة ٧ مساء (بعد قليل من غروب الشمس)، وعندها تنزل درجة الحرارة فجأة وخلال الربع ساعة الاول الذي يلي اختفاء الشمس بواقع ٣٣ درجة مئوية وهذا يعني – ٨ درجة مئوية ثم عند الصباح تصبح – ١١درجة مئوية . بهذا الشكل كان الجو خلال النهار وغالباً حتى عند هبوب الرياح الشديدة البرودة مثل التي تهب كثيراً في الصحراء وتتوقف أيضاً فجأة كما بدأت . وفي ظروف الطقس الشديدة هذه بدأت أشعر بالقلق على الخيل وقبل كل شيء على حصاني الذي لا يقدر بثمن. ولحسن الحظ بالنسبة له كان يوجد غطاء من الفرو متوفر، وكان يغطى به كل ليلة من أذنية الى ركبتيه . أما بالنسبة للخيول الأخرى فلم يكن لها

للأسف مثل هذه الاحتياطات، وبالرغم من ذلك لم نخسر أيا منهم . وقد كنا نشعر بالألم عندما نرى هذه الخيول المسكينة ترتجف من البرد ، كما ان البرودة الشديدة للرمال لا تجعلها تستريح على الأرض طوال الليل.

كان أمامنا لاتزال المفاجأة الكبرى ، ففي ٢ فبراير سقطت الثلوج بغزارة بحيث غطت النفود طولاً وعرضاً بطبقة ثلوج الى الدرجة التي كنا نرى منظر طبيعيا من روسيا لا منظراً في الجزيرة العربية . لقد اوضح لي البدو بانهم سمعوا ان مثل هذه الثلوج تسقط أحياناً الا انها نادرة جداً فلم يسبق ان حدث هذا الحدث إلا قبل حوالي ٥٠ سنة .

في ليلة ٣ فبراير اقتربت من معسكرنا عصابة لصوص وحاولت في هدوء تام محاصرتنا ولكن الكلاب نبحت في الوقت المناسب تماماً مما جعلنا نقف جميعاً بالسلاح في الميدان . قبل ان تفاجئنا أيه أحداث ويحاول اللصوص من البدو خرق قرب المياه بإيقاعها على الأرض ثم ثقبها بواسطة السهام ليجعلوا القافلة بدون ماء ، فيتمكنوا منها في اليوم التالي أو على أكثر تقدير اليوم الذي يليه.

في حالتي لم يكن الأمر ليصل الى أي شيء من هذا، فاللصوص الذين لم يزد عددهم عن ١٥ - ٢٠ رجلاً قوياً ، أخذهم الرعب ففروا فجأة الى درجة انهم تركوا وهم يفرون ناقتين من نياق السباق (ذلول) استطعنا في اليوم التالي ان نأخذهما غنيمة . واحد منهما استطعنا ان نأسره في الحال أما الآخر فقد استمرت ملاحقته فترة طويلة . لقد كان المعسكر عدة أيام بدون لحوم طازجة وكانت رغبة الجميع اللحاق بهاتين الناقتين . في البدايه قاومت هذا الطلب ، رافضاً ان أدفع بأحسن الخيول عندي لهذا الصيد ، بالإضافة الى ان الخيول كان من الممكن ان نحتاج إليها في أي لحظة إذا ماطرأ

طارىء بعد فترة قصيرة . بعد ان لاحظت اننا لن نتمكن من الناقتين بطريقة أخرى اصابتني حمى الصيد . ركب الدليل العربي منيس على ظهر فرسي السوداء السريعة " ليلى" وانا على ظهر حصاني "مانك" مقرراً ألامساك بهاتين الناقتين . وبالرغم من استخدامنا لهذين الفرسين السريعين فلم يكن ذلك يحط من قدر النياق فالامساك بهما استغرق فترة طويلة .

إن الجمال في نجد سريعة جداً ومع ذلك فإنني كنت أجد ان الخيول الجيدة تستطيع بقدر معين من السهولة ان تلحق بها، إلا ان هذا الذلول كان سباقاً بدرجة غير عادية ـ قد لا يستطيع احسن الخيول ان يلحق بجمل سباق من نجد . لقد حاول الأتراك مراراً تربية هذه الجمال في شمال الجزيرة العربية واستخدامها لأغراض البريد في العراق وصحراء سوريا، إلا ان تلك المحاولات كانت تبوء بالفشل إذ اتضح ان هذه الحيوانات تموت سريعاً.

بعد مسيرة اخيرة لأكثرمن ١١ ساعة ظهرت أمامنا قلعة الحيانية يوم ٤ فبراير، حيث تقف هذه القلعة وحيدة ومتربة في وسط الصحراء . من هنا كان النظر الى هذه القلعة يجعلنا نعتقد بانتهاء النفود عملياً الا انه لا زال هناك مسيرة ٣ أيام نحو الجنوب بدون ماء .

في تقديري فإن المسافة من خوعا حتى الحيانية هي ٢٩٠ كم وقد يكون هذا هو الحد الادنى الذي يضاف إليه مسافة اختراق النفود الذي لم يكن من الممكن تفاديه وهي كلها مسافة بدون أي نقطة ماء.

النفود كما سبق ذكره هو عبارة عن أرض حمراء غير عادية وهي صحراء رملية تكسوها التلال الرملية او التموجات الرملية . في المتوسط فإن ارتفاع هذه التلال من قمتها الى قاعدتها تتفاوت ما بين ٣٠ متراً و٥٠ متراً ، وأحياناً من ٧٠ – ١٠٠ متر، بحيث يشعر الإنسان أحياناً انه محاط بحوائط

رملية حقيقية وقائمة. بغض النظر عن التساؤل عن أصل هذه الفوضى وكيف حدثت وما إذا كانت في الأصل قاعا لبحر أو شيء من هذا القبيل فإنه يبدو من غير المفهوم كيف ان الزوابع الصحراوية طوال آلاف السنين لم تعمل على تسوية هذه الرمال أو على الأقل التقليل من حدتها وشدة انحدارها. أو هل يجب علينا ان نقبل الرأي الذي يقول ان الرياح هنا تتبع خطوطاً معينة وتقوم برسم أشكال معينة وهذه تعملها بنوع من النظام المعين وانه في تأثيره على هذه الرمال يقلبها ثم يسويها ثم يعيدها الى وضعها الأول؟

لم يكن تأثير موجات الرمال على نفس النمط، فليس لها أي نوع من الانتظام مثل تلك التي وصفتها في رحلات أخرى .بل يرى الإنسان ان ارتفاع الأرض على امتداد النظر ليست في شكل أمواج تجري في إتجاه واحد مطلقاً. كما ان هذه التموجات كثيراً ماتتحول الى دوائر من الارتفاعات وتترابط فيما بينها تماماً كما لو كانت ترتبط بجسور. وهكذا يكتسب هذا الشكل الطبيعي شكله الفني. بالإضافة الى ذلك يلاحظ وجود عدد من الأشجار قائمة في شكل انفرادي ولكنها مع ذلك كثيرة بحيث تغطي الى حد ما هذه الصحراء. كما وتجد جذوع هذه الأشجار جافة تماماً ويزيد طولهاعن طول الإنسان أما سمكها فهو ما بين نصف قدم وقدم واحدة وهي تعطي بذلك مادة جيدة جداً للإشعال وهو ماساعدنا كثيراً في التدفئة في ظروف الطقس البارد.

يعطي البدو أهمية كبيرة جداً للنفود كما يخافون السفر فيه الى درجة معينة. إن أقساما من العرب يعيشون في أعماق هذه الصحراء ، وهم يفقدون بعض أفرادهم أثناء السير عبرها . أي ان الأفراد الذين يبقون منفردين أثناء السير، نتيجة الاهمال أو عدم الاهتمام ، يجدون انفسهم فيما

بين دوائر الرمال الكثيرة فيضلون الطريق ثم ما يلبثون ان يموتوا من الجوع و العطش.

من المؤكد ان الإنسان لا ينصح بمواجهة مخاطر النفود وغيرها من صحراء الجزيرة العربية دون أخذ الاحتياطات أو بمرافقة أفراد قادرين واستخدام ابل قوية ، و تموين كبير من المياه والطعام بصفة عامة ، وفي حالة الاحتياج يُرسل طلب معونة بواسطة الخيول ، وان يكون الأدلاء جيدين ويمكن الاعتماد عليهم. فإذا أخذنا كل هذه الترتيبات فإنني أستبعد حدوث أية مخاطر وان اختراق النفود أو أي من الصحاري الجميلة والرومانسية هو متعة كبيرة.

أما عن الحياة الفطرية في هذه الصحراء فهي متغيرة جداً بل ان تواجد العدد القليل من الحيوانات التي قابلتها يبدو صعب الفهم . كل مارأيت كان الضباع والغزلان والإبل وبعض الأرانب. وكذلك هنا كما في الأماكن الأخرى الخالية من المياه نوع جميل جداً من الثعالب . لم يكن من المفهوم كيف تعيش هذه الحيوانات بدون مياه وبالتدريج استطعت ان أعرف بعض الشيء عن ذلك وأصبحت أذكر دائماً ان هناك بعض الحيوانات لا تشرب حتى عندما تعطيها الفرصه للشرب وهو ما لاحظته بالنسبة للحيوانات التي ترافقنا.

من الواضح ان هذه الحيوانات تستكفي من السوائل الموجودة في الأعشاب الجافة والتي بها مكونات تساعدها على مقاومة العطش بطريقة العلاج الهوموباتي (علاج المرض بشيء قليل من نفس الميكروب ، و يعطى على دفعات فيقوم بإحداث آثار عكسية) ويبدو هذا في كل حالة أحد الأدلة على كيفية تطور الأجيال من المخلوقات عبر تجاربها وعاداتها وتحقيق متطلبات حياتها بذاتها مماقد يغير في طبيعة وشكل الحياة كل ذلك من مبدأ الصراع

من أجل البقاء. و عندما يقتنع الإنسان بالأمر الواقع من ان الخراف والماعز في الجزيرة العربية لاتشرب فإن ذلك يوضح بذاته كيف ان فصائل من الابل وأصناف الغزلان قد تعلمت أيضاً ان تعيش في هذه البلاد بدون ماء .

وأضيف الى ذلك ان البدو كانوا يخبرونني انه في الأراضي الداخلية التي لايوجد بها ماء ، فإن هذه الحيوانات لاتظهر سوى خلال ٩ شهور فقط . أما عندما تضع صغاراً ويتعين عليها إرضاعاها فإنها تنتقل الى أراض بها ماء وفير مثل مناطق الفرات أو الاحساء أو اليمن أو حوران.

أما الضباع أو الفهود فلم أجدها تنتقل هكذا بعيداً عن الماء كما لم أسمع عن تواجد حيوانات من هذا النوع بعيداً عن الماء بغض النظر عن انه قد يكفي هذه الحيوانات ماتحصل عليه من دماء الفريسة كسوائل لحياتها.

وكذلك الحيوانات التي تعيش فقط على النباتات فلم أر إلا القليل من الأرانب . ويظل يبقى السؤال عن الثعالب التي رأيتها في جميع الأمكنة على بعد مئات الكيلومترات عن أي بقعه ماء . قد يكون أيضاً من العسير عليهم الوصول اليها في أماكن لاترى خلال عدة أيام حتى طائراً يطير في السماء .

لقد كنت أفكر ساعات بل أياما في هذا الأمر الا انني لم أصل إلا الى تحليل معقول قد يصل الى نصف تبرير لحياة هذه الثعالب . وهو انه ربما انها تعيش على الزواحف والضب وانه يكفيها مايوجد في هذه الزواحف من سوائل كبديل للماء . تصطاد هذه الثعالب الجرذان الا ان هذه الجرذان لا نجدها في كل مكان وفيها قد تجد الثعالب رطوبة (ماء) أكثر بكثير من الزواحف.

تستطيع الابل في نجد ان تسير في الرحلة وان تعمل في الفصل البارد من السنة لمدة ٢٥ يوماً بدون ماء وفي الفصل الحار تسير ٥ مراحل خلال ٢٤ ساعة بدون ماء.

والحصان العربي الأصيل لايمكن اعتباره أصيلاً الا إذا كان في إستطاعته تحمل السير الى أراض بعيدة لمدة ٤٨ساعة بدون ان يشرب.

وفي أماكن اقامة البدو التي تبعد مسافة طويلة عن الماء نجد انه ليس فقط الإنسان وحده الذي يعتمد على لبن الابل بل أيضاً الخيل .ان الرجل البالغ والقوي من البدو يستطيع ان يتحمل السفر أو الحرب حتى في أشد درجات الحرارة ارتفاعاً لمدة ٣٦ ساعة بدون ان يشرب أي سائل ، إلا ان هذه الفترة يجب ألا تشتمل على نهارين وليلة ولكن يجب ان تكون ليلتين ونهار . وهذا له معنى كبير حيث انه في الحرارة الشديدة ورياح الصحراء يحتاج الرجل العادي كل ساعة ونصف او ساعتين الى عدة كوؤس من الماء .

إن قلعة الحيانية تمثل مبنى بدائيا. الجزء الأسفل فقط من المبنى مقام من الحجارة أما الجزء العلوي فهو مبني من الطين وهو بالكامل مكون من أربع زاويا و يعلوه برجان فقط ، وهو أصغر بكثير من القصور والقلاع الموجودة في الجوف وفي سكاكا. يوجد باب واحد فقط لهذه القلعة وهو مصنوع من الحديد . وعلى بعد حوالي ٢٠٠متر من ذلك ، نجد برجاً واحدا يقف منفرداً، وهو متصل بالمبنى الرئيسي بواسطة سرداب . وهو بذلك يعتبر حماية للبئرين الموجودتين فيما بين المبنى الرئيسي وهذا البرج ، اذ تكون الحماية بواسطة رماية بندقية من الجهتين. و رغم ان ذلك يعتبر تحصينات بسيطة إلا انه مع ذلك يكفي تماماً ليس فقط لصد أي هجوم من أعداء ليس لديهم مدافع ولكن أيضاً لمنع الحصول على المياه بدون تصريح من ابن رشيد.

أما البئران الموجودتان في "الحيانية" فماؤهما طيب الطعم جداً و وفير و خاصة البئر الرئيسية الموجودة على بضع خطوات من باب القصر و في الوقت الحاضر يصل عمقها من ١٤٠ إلى ١٧٠متراً، وهي مبنية بطريقة

ممتازة بل بطريقة قويه جداً وذلك بقدر مااستطعت ان أرى بنفسي عن طريق انزال عيدان كبيرة مشتعلة في سلة الى عمق البئر. لقد لاحظت ان أجزاء منها مبنية من الصخور الطبيعية ،و أجزاء أخرى مبنية من الحجارة المنحوته والمسواة في شكل مربعات. وهذه البئر مثلها مثل آبار أخرى رأيتها في الجزيرة العربية ولابد انها حفرت في عهد الملوك الأشوريين الذين نعرف انهم وجهوا حملات حتى إلى داخل الجزيرة العربية والى الجنوب منها.

وجدت "الحيانية" مزدحمة بآلاف الابل التي يمتلكها الرولة الذين يستخدمون النفود كأرض رعي في فصل الشتاء اذ بإمكانهم سقي قطعان أبلهم من وقت لآخر من آبار الجوف وسكاكا والحيانية وجبة.

ان هذا الوضع يجعل من الواضح ان ابن رشيد لم يكن يشعر انه سيد النفود الوحيد.

الفصل الثاني

من الحيانية إلى حائل

انباء غير سارة - غياب الأمير - نظرة عامة إلى مدينة حائل - رسالة إلى الوصي على العرش حمود - رفض الوصي على العرش بالسماح لغريب بالدخول - الوصول إلى حل للمصاعب بواسطة الترجمان نصر الله - الدخول إلى حائل - التدخين ممنوع في وسط الجزيرة العربية - الاستقبال الأول - جمهور حائل يعجبون بجمال الحصان مانك - الاستضافة في قلعة ابن رشيد الخاصة القديمة - ترتيبات مطبخ رائعة - ثروة ابن رشيد - الآبار وأهميتها لري الحقول - المدارس في حائل - نوع مخفف من الرق - قصص رق هزلية - أحداث غريبة - معلومات عن مقتل "هوبر" الألزاسي - وضوح ادراك ابن رشيد للافكار الاوروبية - عدم ثقة العرب - تغيير مفاجىء للرأي العام في صالح الرحالة - الأمطار - أسلحة الأمير الفعالة - زيارة إلى المساجد - نزهة إلى "عايدة" - جبال حائل - دعوة ابن رشيد إلى لقاء في الصحراء - المغادرة من حائل- وداع حميم مؤثر من "حمود".

وصلت إلى مسامعي انباء غير سارة حقاً عندما كنت في الحيانية. إن الأمير، كما يطلق عليه، غائب عن حائل في غزوة الى مكان ما بعيداً في الجنوب ، تقريباً في منتصف الطريق إلى عدن. وفي حائل تم تعيين وصاية للعرش تحت قيادة حمود ابن عم ابن رشيد . إن كل ذلك قد يقودني إلى وضع محرج حقا اذ ان الوصاة على العرش في حائل ربما لايرغبون فيّ ، أو حتى لايشعرون بقوة كافية، لاستقبال شخص اجنبي . ولكن تحت أي من الظروف فإنه ليس هناك من خيار سوى مواصلة الرحلة.

في يوم ٩ فبراير كنت على مشارف حائل ومناظرها الخلابة التي تشكل سلسلة جبال "جبل شمر"خلفية فنية رائعة لها .

لقد دخل نصر الله ،الذي أرسلته مسبقاً الى حائل ، في نقاش عاصف مع حمود نائب الامير الذي رفض ان يسمح لي بحرية التجوال في حائل.

ان كل المصاعب والحروب التي خاضهاابن رشيد مع الوهابيين الذين تمت هزيمتهم مؤخراً مع سكان نجد الآخرين، كانت نتيجة لعدم الرضا عن إقامة الامير لعلاقات ودية مع الاتراك ، وغير المؤمنين من جميع الانماط، ومع العرب الآخرين ، واتهامه بانه يفضل مصالح الأجانب . ان الغالبية العظمى لمن هم في عمر ابن رشيد هم وهابيون . وفي الحقيقة فإن معظم سكان مدينة حائل هم من الوهابيين، ولذلك فان حكومة حائل كانت قد اتخذت قراراً لا رجعة فيه منذ عدة سنوات بألاتسمح لاي اجنبي بالدخول الى نجد. اذاً لو كان حمود قد سمع في الوقت المناسب عني، لكان قطعاً قد اصدر أوامره بحجزي في الجوف .

بالرغم من ان نصرالله قد دُهش للغاية من الأمر إلا انه ولحسن الطالع لم يفقد أعصابه ، بل اجاب في حزم وثبات بانني قد قدمت إلى نجد بخطاب

تعريف من السلطان ، وانه قبل كل شيء سوف يكون غير ذي جدوى، وليس متمشياً مع كرم الضيافة العربية الأصيلة إذا ما ُطردتُ راجعاً إلى الصحراء بعد تلك المسيرة الطويلة الشاقة، وان الامير لو كان موجوداً فإنه بكل تأكيد لم يكن ليقبل في مثل هذا الأمر، وحجج أخرى ذات طبيعة مشابهة.

واخيراً حاول حمود عمل بعض التغييرات بشان طريقة وصولي ومظهري الأوروبي، والذي قد يكون سبباً للاضطرابات وحتى للتمرد والعصيان من قبل السكان. ان مثل هذا الأمر كان حقاً الأكثر إزعاجاً وخشية رغم ان حمود كان لديه عدد من الجنود تحت تصرفه. الى جانب ذلك فان القليل من الاجانب الذين وطئوا أرض حائل ("بلغريف "، والليدي آن بُلنت"، و"داوتي" و"هوبر") لم يطلبوا استقبالاً شعبياً ورسمياً مثل ما هو الأمر معي ، ولكن مراعاة للشعور العام قاموا بارتداء الزي العربي بالكامل . وهكذا اقترح حمود بان ارتدي قلنسوة بيضاء من الجلد بالإضافة الى سيف بمقبض ذهبي، والا فإنه من الصعب التكهن بماستؤول إليه الأمور من تطورات، حتى مع أفضل دعم من نائب الأمير شخصياً. لم يستسلم نصرالله الذي أفاق من دهشته الأولى، ولكنه اعتقد بان الأمر ربما لن يكون سيئاً للغاية. بالإضافة إلى انني باستثناء بعض الملابس البيضاء القليلة فإنني لا أُملك ايا من الثياب ذات الطابع العربي، ولا بد ان ولي العهد قد فطن إلى انني بأية حال من الاحوال لم اكن لأوافق على التنكر في هيئة مضحكة وغير مجدية كعربي، إلى جانب ان الله وحده يعلم كيف وممن يمكنني ان أستعير ثياباً. في أسوأ الاحوال يمكنني ان انصب مخيمي خارج المدينة، تاركاً حائل كلية، وان أتحرك بعد ذلك بعيداً في اتجاه عنيزة، كخطوة أولى نحو اللقاء مع الأمير. أخيراً ترك وصاة العرش كل إعتراضاتهم، وقاموا بإعداد قصر الامير القديم

في عجلة. وبعدها بفترة وجيزة دخلت حائل ممتطياً صهوة جوادي.

ملأ حشد كبير تعداده على الاقل عدة آلاف الشوارع والميدان أمام مبنى الحكومة ، ووقف حمود امام بوابة المبنى محاطاً بأتباعه وبكل أدب انتظر ليدعوني الى أول استقبال رسمي.

ان التدخين في حائل ، كما هو حقاً في جميع ارجاء أواسط الجزيرة العربية ممنوع منعاً باتاً، وفي منطقة الوهابيين فإنه يعتبر شرا يماثل شرب الخمر. ان بيع التبغ، وحتى حيازته بصورة عرضية والذي يدعونه "عشب الشيطان" يقود الى عقوبة شديدة، ويمكن ان يؤدي إلى قطع الاذنين في حالة المذنبين الدائمين. في ظل مثل هذه الظروف فقد كان أمراً مهماً معرفة ما اذا كان يجب ان ادخن علناً وسط الجمهور وفي الفناء أم لا، أو عما اذا كان كوني اجنبياً سيجعلني مستثنى من ذلك . إن قيامي بالتدخين في هذه الظروف سوف يعتبر استفزازاً، وفي نفس الوقت الا ادخن سوف يعتبر بكل تأكيد دلالة على الضعف. على اية حال لقد كان الامر معروفاً جيداً، انني ادخن واشرب الخمر وقد تشاورت مع نصرالله حول هذا الأمر.

لقد كان الاستقبال الاول مهذباً وحضارياً للغاية للدرجة التي فكرت معها بانه من غير الحكمة في شيء ان استعجل الامور. لذلك قررت عند الاستقبال الاول بألا أدخن و ألا أطلب الاذن لذلك. وفي آخر دقيقة بينما كنت ارتدي جوارب الايدي استعداداً للمغادرة بدا ان حمود قد فكر في هذه المسألة. لقد اعتذر بانه قد نسي تماماً ان يسألني عما اذا كنت ادخن، و انه ربما لذلك السبب لم ادخن . رددت بعفوية "بالطبع" وانه في المرة القادمة سوف آمل في دعوته الطيبة.

عندما غادرت القصر لكي أذهب إلى مكان إقامتي لاحظت ان عدد

الجمهور قد ازداد بصورة كبيرة. في البداية سُمح لي بان اسير في صمت مطبق ، ثم جاء بعد ذلك الانفراج مع حماس العرب وحبهم للخيول. لقد حاز جمال الحصان "مانك" على استحسانهم وشغفت قلوبهم بحبه حتى سرت همهمة وسط الجمهور التي ارتفعت في النهاية الى صياح عال "ماشاء الله! ياله من حصان رائع!".

ياللراحة ! لقد تأثرت جداً بهذا الحدث، ان يتلقى حصاني المحبوب مثل هذا الاعجاب لدرجة انني اظهرت تقديري بالتلويح بيدي بينما يزداد الثناء. على الاقل الآن لدينا حماس مشترك وبدا و كان هذا الحدث قد أذاب الجليد لصالحي في نجد. ان جمال الحصان "مانك" الذي كان دائماً يخدم بما يكفي كأصل لا يُقيّم بثمن في توثيق الاتصالات مع محبي الخيول . قد يكون هذا القول مستغرباً للقاريء الاوروبي ولكنه ليس كذلك في الشرق . ففي جميع الاماكن التي تستخدم بها اللغة العربية هذه حقيقة واقعة . وعليه فان الحصان الأصيل في كل مكان يعتبر غالي الثمن كغلائه في الجزيرة العربية مما يفسر الاجابة التي اتلقاها عندما استفسر عن ثمن هذا الحصان او ذاك بالقول :انه يستحق كل ثمن يمكن ان يعرض كسعر له . بمعنى أخر، إن كل عربي غنياً كان أم فقيراً سوف يكون مستعداً لان يعطي كل شيء في سبيل حصان معين، وكل مايملكه من مال في تلك اللحظة ومن خيول اخرى و خيام و جمال و سجاد وهكذا .

ان مقر الإقامة الذي تم توفيره لي كان قصر ابن رشيد الخاص . وبالطبع فإنه قصر فقط بالمفهوم العربي. اما في الواقع ، على أية حال ، فإنه تكتل للعديد من الغرف المظلمة على الدوام (مابين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ غرفة) وحجيرات صغيرة ، غرف علوية، وممرات ودهاليز واروقة، وبالاضافة الى

الافنية الكثيرة والكبيرة للغاية، و حديقة شاسعة وجميلة حقاً.

يحيط بالمجمع كله جدار ذو أبراج، وحتى في الداخل فإن هناك ابراجا بأعداد وافرة ، وفتحات دفاعية وماشابه ذلك. انه على نحو ما "برج لندن"، في حائل، فيما يتعلق بعشرين سنة دامية من تاريخ الجزيرة العربية تم صنعها هنا.

بقي ابن رشيد في هذا القصر حتى عام ١٨٩١، حيث بنى لنفسه منزلاً صغيراً متصلاً بالمبنى الحكومي ، لانه رغب في ان يكون بالقرب من ثروته ومدافعه وأسلحته.

ان اغلب سجناء الدولة المهمين محتجزون في مكان تحت اشرافه الشخصي ، وحسن بن مهنا شيخ بريدة تم تحويله حسب معلوماتي في يوم وصولي الى المبنى الحكومي .

إن غرفة إستقبال الأمير السابقة تقع منفردة على احدى الشرفات ولقد وقع اختياري عليها كأفضل مكان يجمع بين غرفة للنوم وغرفة للاستقبال. لقد كانت غرفة كبيرة بها عدد من السجاد المفروش ، وكانت مزخرفة بأعمدة وبعض الصور البسيطة التي تزين الجدران.

وكما علمت لاحقاً، و كما اخبرني حمود انه في هذا المكان قبل عشرين عاماً أمر ابن رشيد بقتل ثمانية من ابناء عمه مع عبيدهم.

ان حائل ليست بالمكان الكبير، ويحتمل الا يزيد عدد سكانها عن ١٠,٠٠٠ إلى ١٢,٠٠٠ . يقضي ابن رشيد معظم الوقت في الصحراء ويبقى في حائل فقط اثناء الشهرين أو الثلاثة أشهر الأكثر حرارة في السنة عندما تكون الصحراء جافة للدرجة التي لاتوجد معها حتى نبتة شوكية لتأكلها الجمال. وهكذا فإن حائل لاتلعب بكل تأكيد دوراً كعاصمة في هذه الدولة

العربيـة، بل انـها مكان للتـخزين حـيث تحـفظ الزوجـات والأبنـاء والمال. إن كل مايشاهده المرء في حائل (من مبان، وجدران وحدائق وآبار) جميعـها في حالة رائعة وتبدو نظيفة ومرتبة ، و كل شيء جديد وقد تم بناؤه أو اكتمل للتو. ان المدينة بأكملها محاطة بجدار من الطين السميك، والذي لم يكن بقصد الدفاع الحصين ولكن على الارجح لفرض القانون، ولبسط الأمان في المدينة، وايضًا اذا مادعت الحاجة ان يقدم الحماية فقط ضد غارات عصابات النهب المتطين للخيول، أو صد الهجمات المفاجئة عندما لا يكون هناك الا عدداً قليل من الجنود أو عدم وجود جند على الاطلاق بالمدينة.

خلاصة القول، ان حائل هي المدينة الوحيدة في الجزيرة العربية التي قد يفكر حكامها فيها، كما كان ملوك بروسيا يفكرون في برلين ، فأحسن دفاع عنها يكمن في السيطرة على الريف المحيط بها.

إن القصر الحكومي هو مبنى ضخم محصن، وبالرغم من كآبته وعبوسه فإن له مظهرا مميزا للغاية، فمثله مثل كل الحصون العربية له جدران لا نوافذ لها وبفتحات متاريس فقط. ان الجدران كانت على الاقل بارتفاع ٢٥ مترًا حسبما اتذكر، ويوجد عليها ستة أبراج. إن كل شيء بها ذكرني بالقلاع الفرنسية والاسبانية المحصنة التي من المحتمل جداً ان يكون طابعها المعماري ذو أصل عربي.

ان مطابخ قلعة حائل بنظافتها غير العادية وبتجهيزهاالجيد يمكن ان توصف بكل أمانة بانها رائعة. ولابد لها ان تكون كذلك فابن رشيد حينما يكون موجوداً بحائل فإنه لايطعم حاشيته فقط ولكن ايضا حرسه الشخصي الذين في العادة يكونون ملازمين له. و تبلغ جملة من يطعمهم أكثر من ٢,٠٠٠ شخص . ان الكلفة اليومية لادارة المطبخ تصل إلى ١٠٠ جنيه استرليني.

بالاضافة الى مخزون كبير من الاسلحة والبنادق والسيوف والذخيرة شاهدت في القلعة ثمانية مدافع عتيقة للغاية، وهي بالكاد ان تكون ذات نفع ماعدا الدفاع عن القلعة بالطلقات ذات الشظايا لخلق نوع من الخدعة والحيلة والتي قد تكون ذات أهمية حاسمة ضد جمهرة من الغوغاء العدائيين.

ان ثروة ابن رشيد محفوظة في القلعة وتشمل أساساً قطعا تركية وانجليزية من الذهب قيمتها مابين ١.٥ إلى ٢ مليون جنيه استرليني، وهو مقدار ضخم للغاية في الجزيرة العربية ، خاصة اذا كان نقداً. بالطبع فإنني لست متأكداً عما اذا كان هذا الرقم دقيقاً، ولكن ذلك احتمال وارد، فابن رشيد رجل ثري للغاية. ويمكن للمرء ان يقدر انه يحصل على عائد سنوي ما بين ٦٠,٠٠٠ إلى ٧٥,٠٠٠ جنيه استرليني تقريباً وهو المبلغ الفائض عن مصاريفه.

ان المحافظة على آبار الماء ، بالاضافة إلى إنشاء آبار أخرى جديدة يستوعب معظم وقت وإنفاق الإدارة الحكومية. إن هذا الأمر له أهمية بالغة ، نظراً لعدم وجود صنابير للماء ، وتأخر موسم الأمطار السنوي. إن مياه الآبار ليست مصدر لحياة الناس فحسب ولكنها المياه الوحيدة التي لابد من استخدامها لري البساتين والحقول. يتم سحب المياه من أعمق الآبار بواسطة بكرات تجرها الجمال، ومن ثم عبر قنوات صغيرة إلى الأرض التي يُرغب في ريها. إنها عملية شاقة ومضنية حتى لري العدد القليل من الحقول المحيطة بحائل، ولكن بالرغم من ذلك فإنه يبدو انها تنتج القمح الذي ترتفع أسعاره بصورة غير عادية، ولذلك فإن المساحة الزراعية ستزداد اذا لم يحد الزحف الصحراوي من الأرض الصالحة للزراعة في حائل، كما في غيرها من الواحات العربية . ان المحصول الرئيسي هو الشعير، والذي يعود بسعر

يساوي "مجيدية" واحدة لكل أربع "أقات قسطنطينية" في سنة انتاج جيدة. في اواسط الجزيرة العربية لا يكاد الإنتاج الزراعي يكفي معدل الاستهلاك، لذلك فإنه من الضروري ليس شراء الشعير فحسب، بل أي شيء آخر كالأرز والمواد الغذائية الضرورية الأخرى من أي مكان آخربعيد ، حتى من بغداد وخارج العراق.

هناك أربع مدارس في حائل ، و توصف هذه المدارس وفق معايير العرب بانها جيدة للغاية . لقد انغمس ابن رشيد بشكل كبير في هذا الترف الثقافي فجلب عدداً من المعلمين من سوريا ومصر وكان يحاول بمساعدتهم توسيع نشر التعليم بين اتباعه.

بالاضافة الى تعليم القرآن واللغة العربية وهما يمثلان بالطبع المواد الأساسية كانت تدرس بعض الرياضيات والجغرافيا. وقد تم عرض اثنين من صبيان البدوعلّي لتفوقهما في الرياضيات وتميزهما في فهمها بصورة سلسلة للدرجة التي كانوا معها قادرين على استخدام الفواصل العشرية. إن المرء ليجد أحياناً وعياً على قدر لابأس به بين البدو عن النجوم ، و قد أدهشني الأمير على وجه الخصوص حقاً بمعرفته الواسعة في هذا الموضوع، اذ كان يعرف أسماء مئات النجوم ووصف لي بالتحديد الدقيق كيف ان كل واحدة منها تغير موقعها خلال الساعة الواحدة، وكيف ان كل ذلك يؤخذ في الاعتبار لمعرفة وتأكد المرء من موقعه وصحة مساره. و كان ينهمك في مثل هذه الأمور للدرجة التي يراجع ويقارن فيها بصورة يومية ساعاته وبوصلاته المختلفة. أما فيما يتعلق بجهازه لمقياس الضغط الجوي (الباروميتر) فإنه قد نوه مازحاً بان مثل هذه الأدوات غير ذات نفع للأعراب، وان اهتمامه الوحيد بها رغم عدم دقتها بالنسبة للأمطار التي لا يمكن توضيحها هو ان "الباروميتر" عندما

يهبط أحياناً فإنه يعني سكون الرياح والعواصف ، التي لقى منها المرء مايكفي.

إن الرق موجود في كل انحاء أواسط الجزيرة العربية، وكقاعدة عامة على أية حال، فإن وجوده محدود ، فالرقيق يعتبرون ويعاملون كأبناء مدللين أكثر من كونهم مماليك ، و رغم ذلك فهم رقيق وفق المفهوم الأوروبي.

في إحدى المناسبات سنحت الفرصة ان أكون مشتركاً في قصة "عبد" مسلية للغاية. حدث ذلك على بعد مسيرة يومين من قرية " كاف" . لقد تأخرت لمسافة خلف القافلة عندما تبينت ان هناك مطاردة تجري عن بعد. كان هناك رجل يجري خلف آخر. انضم بعض جنود حرس المقدمة الذين كانوا معي، والذين أثارتهم المطاردة فانضموا إليها، وتمكنوا من القبض على الهارب لكونهم كانوا على ظهور الخيل . عندما قدمت راكباً إليهم كانوا قد أوثقوا الهارب. لقد غضبت كثيراً عندما علمت ان المقبوض عليه (وهو صبي صومالي أسود) كان عبداً مملوكاً هارباً من سيده ، وانه كان بكل تأكيد سيتمكن من الهرب لولا تدخل جنودي.

لقد وصل الأمر الآن إلى قرار، مثلما حدث عنما عرضت لي تجربة مماثلة بالرغم من انها كانت ذات نتيجة مختلفة . وكانت حالة صبي ووالده هاربين من سيدهما .

لقد تم تحرير العبد من قيوده وتم وضعهما كليهما – هو وسيده – في نفس مكانيهما اللذين كانا فيهما قبل الوقت الذي تدخل فيه الجنود. علاوة على ذلك تم منح العبد الهارب مسافة اضافية كميزة لتعويض مسألة انه كان مطارداً من قبل راكبي الخيل. إن كل المسافة لم تكن كافية، اذ انه إستسلم في الحال تقريباً. ولكنني رغبت في عمل شيء من أجله. وبعد مناقشات طويلة

للغاية تمت تسوية هذا الأمر بالموافقة على ابتعاد العبد عن سيده بمسافة مائة وخمسة وعشرين متراً . لقد جادل سيد العبد بضراوة حول هذا الأمر ، فذلك قد يفقده عبده. لقد كان غاضباً وحانقاً للدرجة التي أقسم معها لو ان بندقيته التي تركها بالمنزل، كانت معه، لفضل دون أي جدال إضافي ان يردي العبد قتيلاً (قيمته حوالي ٥٠ إلى ٦٠ جنيهاً إسترلينياً) بدلاً عن فقده نتيجة لتدخلي. الذي حدث، ان هذا الرجل كان يحمل معه بالاضافة إلى سيفه مسدساً غير ذي نفع، والذي كما بدا لا يشكل أي خطورة على ذلك "العبد" الصبي. بالرغم من ذلك أدى هذا الاحتمال إلى بدء النقاش من جديد، وقد أوضحت فيه بجلاء بان حياة العبد المملوك تعتبر بين أيدي سيده بمجرد ان يكون على بعد خمس إلى ست خطوات منه ، واذا ما حدث ذلك، فإنني سوف أتدخل في هذه الحالة وأقوم بتسليم العبد مقيداً مرة ثانية إلى سيده. لقد اعتبر مالك العبد ان مسدسه فعال بما يكفي لان يكون أحدهم في نطاق عشر خطوات عن الآخر كحد أدنى، ولذلك فإنه لم يدهش عندما أعلن العبد بانه مستعد للوقوف داخل مثل تلك المسافة للرماية أمام سيده بشرط انه اذا لم يُصب بمقتل أو يجرح فإنه سيصبح حراً ويذهب معي.

أخيراً بدأ السباق، ولقد برهن كلاهما (السيد والعبد) بانهما عداءان ممتازان ولا يؤثر فيهما إرهاق العدو ، وهذه السمة هي مايلمسه المرء عادة في الجزيرة العربية. في البداية فقد العبد بعض المسافة، ولكن بعد وقت قصير لم يتمكن من الحصول والمحافظة عليها فحسب ، بل نجح حتى في ان يباعد بينه وبين مطارده المرهق مسافة كيلومتر واحد.

إلى ذلك الحد أصبح جلياً ، انه لن يتم اللحاق بالعبد ، لذلك واصلت رحلتي، وانا آسف لان أقول هذا دون ان أفكر فيما صار بشانهما.

ان الأشخاص العاديين سوف ينهارون في وقت قصير تحت ظل مثل هذه الظروف في الصحراء ، و لكن هذا ليس صحيحاً بالنسبة للعرب او الزنوج ، اذ انه حقاً لا يصدق مايمكن لمثل هؤلاء الأشخاص ان يتحملوه، خاصة في فصل الشتاء حيث يكونون قادرين على السير دون ماء لعدة أيام.

في الحيانية شهدت مؤخراً عبداً تمت إعادة القبض عليه. لقد سرق هذا العبد جمل سيده واستخدمه للفرار. لقد سار لمدة خمسة أيام وخمس ليال دون راحة عبر النفود وبدون طعام أو ماء وكان من المحتمل الا يتم القبض عليه إطلاقاً لولا ان عصابة للنهب من البدو التي اعترضته جردته من الجمل كغنيمة قيمة. وواصل بكل شجاعة هربه سيراً على الأقدام ولكن تم القبض عليه بواسطة سيده الذي كان يطارده بالقرب من مشارف الحيانية.

بعد هذه البرهة الطويلة من وصف هذه الأشياء المخزية ، آن الأوان لكي أعود مرة أخرى لسرد قصة إقامتي في حائل .

لقد قام حمود برد زيارتي له في صباح اليوم التالي لوصولي ، ولكنني خلال الأيام القليلة الأولى لاحظت في أكثر من مناسبة بروداً وفتوراً من جانبه. كان بين بعض الأحداث الأخرى الغريبة التي حدثت و بدت مثيرة للريبة الشديدة ، ليس فقط بالنسبة إلى المترجم الخاص بي بل أيضاً بالنسبة للشيخ محمد، هي إرسال حمود بدافع من الاهتمام ، صورة فوتغرافية "لهوبر" الالزاسي الذي اغتيل في عام ١٨٨٥ بين حائل والمدينة. وهذه الصورة والتي لاتزال في حوزتي عليها توقيع "هوبر"، ومن الواضح انها أُخذت من اغراضه الشخصية بعد مقتله . كيف ظهرت تلك الصورة في حائل؟.انه لأمر لا يمكن على الاطلاق توضيحه بشكل كامل، لذلك يبدو ان هناك قدراً كبيراً من الاهتمام في نشر روايات مختلفة عن القصة في مجملها . فبممارسة

الضـغط من قبل وزارة الخـارجيـة الفـرنسـيـة ذات النفوذ القـوي على حكومـة الباب العـالي (الامبـرطورية العـثـمـانيـة) قـامت الأخـيـرة بغـرض كـسب الوقت، بالدخول في مكاتبات مع ابن رشـيد حول هذا الموضـوع (١). على أية حال فإنه لم يكن مستعداً لان يشغل نفسه ويهتم بهذا الأمر، وعزا اللوم كما كان يدّعي، الى انفـراط عـقـد الامن المريع وظروف الحيـاة في اقليم الحكم التـركي وعلى وجه خاص حول المدينة. على كل فإنه قد أعتبـر ان "هوبر" قد قتل في منطقة تقع تحت الحكم التركي وانه من الصعوبة بمكان المحافظة على النظام هناك، كمـا انه في ذات الوقت قد سـئم من مثل تلك القـصـص . عـلاوة على ذلك فإنه يقبل قدراً ضـئـيلاً من المسئوليـة حيث انه كـان قد منح "هـوبر" أعلى درجـات

(١) شارل هوبر هو رحالة فرنسي من مقاطعة الالزاس ، وكان مولعاً بالاكتشافات الجغرافية ، فجعل الجزيرة العربية اقليمه المختار . بدأ هوبر رحلاته بتكليف من وزارة التعليم بهدف اكتشاف نجد . قام هوبر برحلته الاولى عام ١٨٧٨ واستمرت حتى ١٨٨٢ . وفي يونيو ١٨٨٣ سافر تحت رعاية وزارة التعليم العام واكاديمية التسجيلات والآداب الجميلة للجمعية الجغرافية الفرنسية . قتل هوبر في ٢٩ يوليو ١٨٨٤(وليس كما ذكر نولده بانه اغتيل ١٨٨٥) اثناء رحلته وذلك بواسطة الادلاء الذين كان قد اختارهم لقيادته. و قصة قتله انه كان قد غادر جدة في ليلة ٢٦/٢٧ يوليو برفقة خادمه محمود و دليلين اثنين . وكان محمود يتبع الطريق التي تقود الجمال المحملة بالعفش بينما هوبر ودليلاه - يبتعدون باستمرار احيانا الى اليمين واحيانا الى اليسار اما لجمع بعض التسجيلات القديمة واما لرسم خريطة واما في النهاية لعمل بعض الملاحظات العلمية. ومر يوما ٢٧ و٢٨ يوليو بدون مشاكل . في يوم ٢٩ في لحظة وصول محمود (مرافقه) الى محطة التوقف بالقرب من رابغ وجد الدليلين يقيمان الصلاة وهوبر ممدد على مسافة منهما تحت عباءة عربية. اعتقد محمود ان سيده نائم وبدأ في تنزيل حمولة الجمال وفجأة لاحظ بندقيتين موجهتين الى صدره وسمع صوت احد الدليلين يقول له "انتبه ! القي سلاحك ! والا سنفعل بك مافعلناه بسيدك الملقى هنا عند اول حركة عدوانية منك . بقي محمود اسيراً لدى الدليلين لمدة يومين ثم تمكن من الهرب وذهب الى المدينة المنورة ثم حائل ثم عاد اخيراً الى جدة ليضع نفسه تحت تصرف نائب قنصل فرنسا. الذي تم تكليفه بمتابعة المجرمين .قام قنصل فرنسا في جدة بجمع ما تركه المقتول من اوراق وملاحظات بالاضافة الى حجر تيماء الأثري ذي القيمة التاريخية العالية والذي كان مثار خلاف بين هوبر ورفيقه اوتنغ .و بمساعدة تركيا وابن رشيد حصلت فرنسا على ذلك الحجر .
حول قصة مقتل هوبر انظر:
تقديم E.Renan, Barbier De Meynard, C. Maunoir. ليوميات هوبر عن رحلته الأخيرة التي تم نشرها بعد مقتله ، و كانت بعنوان:"Journal D'un Voyage En Arabie(1883-1884) " وتم نشرها في باريس عام ١٨٩١ من قبل الجمعية الجغرافية الفرنسية . (المحرر)

الاعتبار واللياقة، ومن بين الخدمات الاخرى كما يعلم الجميع انه قد بنى بصعوبة و تكاليف كثيرة منصات ضخمة في الجبال ليستطيع الفرنسي "هوبر" من الحصول على صور وطبعات من المخطوطات الأثرية القديمة التي يمكن ان توجد على جدران الصخور . أخيراً كل الافكار حول هذه القصة قد اختلطت وارتبكت بالكامل عندما اقحم خادم "هوبر" البروسي فيها (١).

إن "هوبر" كان قد ذهب الى حائل مرتين، وانه فقد حياته عندما كان في طريقه إليها للمرة الثالثة. يبدو ان سبب ذلك كان مجازفته الخطيرة بحمل مبالغ كبيرة غير ضرورية من المال معه من اجل هذه الرحلة ، خاصة وانه لم يسافر مع حماية قوية كافية. لقد اخبرني ابن رشيد نفسه بانه بعد مقتل "هوبر" ظهر خادمه في حائل يطلب تسليمه الاشياء التي تركها المتوفى في حائل في وقت سابق .

---

(١) المقصود هو الرحالة و المستشرق الالماني جوليوس اوتنغ الذي رافق هوبر في رحلته التي بدأت في مايو ١٨٨٣ حتى افترقا بسبب الغيرة بينهما وخاصة من طرف هوبر الذي ينقصه مستوى تأهيل اوتنغ العالي . وكان هوبر يقول عن اوتنغ انه خادمه ولم يذكر اسمه ابداً في يومياته وحاول عدة مرات اقناع الامير في حائل ان يسمح له بزيارة تيماء و العلا بدون اوتنغ رغم اتفاقهما المسبق على زيارة هذه الاماكن معاً وانجاز هدفهما بنسخ جميع النقوش الموجودة في المنطقة. لقد افترق الرفيقان قبل حصول النهاية المأساوية السابق ذكرها لهوبر . ثم عاد اوتنغ الى بلاده بعد محاولات متعددة للحصول على حجر تيماء الذي ادعى انه هو الذي اشتراه وليس هوبر .كانت رحلة اوتنغ للجزيرة العربية من اهم رحلاته العلمية ، حيث نتج عنها الحصول على آلاف النقوش الأرامية والنبطية والسبئية و اللحيانية ، ونشرها في مؤلفات عديدة .

حول قصة هوبر و اوتنغ انظر:

David George Hogarth.The Penetration of Arabia : Record of the Development of Wstern Kowledge Concerning the Arabian Peninsula. New york:frederick A. Stokes Co, 1904. p 281-282..

Julius Euting, Tagbuch einer Reise in innerarabien.Leiden: Brill,1896.

Philip Ward, Ha'il :An Oasis city of saudi Arabia.Cambridge:The Oleander Press,1983. pp439-441.

لقد وافق الامير على تسليمه الأغراض بعد ان اقتنع عقب تحريات قليلة بان "هوبر" قد مات بالفعل. و بعد ان تم التحقق من الأمر تم تسليم الاغراض، حيث ان الأمير بالطبع فكر في ان يتفادى كل اقحام له في الموضوع ، و لأن الخادم المذكور كان الاوروبي الوحيد الذي شوهد في السابق في معية هوبر . على اية حال، لقد اكتشفت بعد تحقيقات غير مثمرة قمت بها في سوريا وبغداد والبصرة وفي اماكن اخرى بان خادماً بمثل تلك الاوراق والاغراض لم يغادر الجزيرة العربية على الاطلاق، وعلى احسن الاحتمالات لم يكن هناك خادم مطلقاً.

في احدى المناسبات سألت الامير مستفسراً "كيف عرفت ان خادم "هوبر" كان ألمانيا، او على وجه التحديد بروسياً ؟ ، فكون كليهما كان يتكلم اللغة الألمانية مع الآخر لايبرهن شيئاً على الاطلاق حيث كان "هوبر" نفسه من الالزاس وان خادمه ربما كان حقاً من مواطنيه . أجاب الأمير وهو يكاد يفصح عن غضبه قائلاً "حسناً، انني اعرف كل شيء عن منطقة الالزاس: لماذا لايجب ان اعرف ؟ انه ذلك البلد الذي انتزع من فرنسا بواسطة الألمان قبل عشرين عاماً، وكنتيجة لذلك تم قصف المدينة المشهورة باريس، وان الفرنسيين الآن غاضبون جداً على ألمانيا لدرجة انهم تحالفوا مع حكومة موسكو، وان عدم الوضوح هذا شكل نقطة المركز لكل السياسات الاوروبية، وانها سياسات يتعلق بها مصير الدولة (العثمانية)، وهو مصير ذو اهمية كبيرة واهتمام بالنسبة لنا في الجزيرة العربية، ولنكون مستعدين مسبقاً ".

لقد وجدت مسبقاً ان ابن رشيد ذكي وداهية ماكر و بدوي مستنير ومطلع بصورة جيدة. ان فهمه الواضح للشئون الاوروبية كان حقاً مثاراً للدهشة اذا ما اخذنا في الاعتبار ذلك المزيج الغريب والمتكرر لدى العرب من

دهاء سياسي . وبربرية، ومن وحشية مع كياسة وكرم ضيافة تقليديين ومن فهم شاف وفطنة مع جهل وتعصب – حقيقة انه مزيج غريب وخلطة مدهشة.

حقيقة ان صورة "هوبر" قد ارسلت اليّ ، لم تكن تبدو بالامر السيىء في حد ذاته، ولكن حالة الصورة كانت تبدو غريبة نوعا ما، وان المرافقين لي رأوا انه من المثير للشكوك ان حلق الرجل التعيس تم فتحه الى الخارج بآلة حادة لتوضيح انه قد تم ذبحه و قطعت عنقه . لقد ثار السؤال عما اذا كانت هذه العلامة قديمة أم جديدة، واذا ما كانت جديدة فهل لها دلالة معينة بالنسبة لي، أو ربما بالنسبة لنا جميعاً. لذلك، وبما انني لم ارغب في زيادة خطورتها بشكل غير ضروري، فقد اعلنت انها تحتاج الى فحص دقيق بواسطة عدسة مكبرة للوصول الى تقرير مضبوط حول عمرها، ومن ثم صرفت النظر عن اهميتها.

احياناً يعيش المرء احساساً بتوقع الشر والمصيبة عندما يفكر في هذه المسائل والامور المشابهة في وقت متأخر من الليل في جو كئيب مظلم. ان المساحة الشاسعة والظلام الغريب لمجمع المبنى الذي اقيم فيه، وغرفتي الكبيرة، وهي صالة كبيرة، مضاءة بشكل مخيف بنار متأججة في وسطها، والقصص الدامية الكثيرة، وبالمثل الحكايات التي من المحتمل المبالغة فيها عن سجناء كثيرين في القلعة مقيدين بالسلاسل. ومما يزيد هذه المخاوف ظلام الليل الدامس ، و الاصوات الخامدة لأقدام افراد الدوريات الليلية في الخارج.

اثناء اليوم الاول لمقدمي بارحت الغرفة فقط لزيارة القلعة و ماعدا ذلك فقد كان الخلود للهدوء في مقر إقامتي، منتظراً التطورات اللاحقة للأمور.

مثلما هو الحال مع كل الناس المرتابين عديمي الثقة والمتحفظين اساساً، فانه مما ينصح به دائماً مع العرب ، هو إعطاؤهم الوقت لكي يعتادوا على

الاشخاص الجدد، والاتصالات الجديدة، والافكار الجديدة. بعد ذلك فإنهم يصبحون مرنين ، ويستطيع المرء ان يعايشهم ويسايرهم بصورة جيدة للغاية.

في هذه الاثناء بدأت تحدث شتى انواع الامور التي سيرت الوضع لصالحي. . لقد بدأت السماء تمطر بمجرد وصولي الى حائل : لقد كانت حقاً امطاراً عاصفة غمرت كل شيء واستمرت لمدة ٣٦ ساعة. هذا الجمع بين جو مبلل وبارد للغاية لم يكن مريحاً بالنسبة لي شخصياً، ولكن بالنسبة للعرب فقد كان اندر واكبر واعظم مكافأة من الله يمكن تخيلها.

كما ان حمودا كان يعاني من كحة لعدة اشهر، وهي تبقيه مستيقظاً طوال الليل. و بعد وقت قصير من قدومي ، اختفت هذه الكحة، من المحتمل نتيجة لتغيير الطقس الذي اعقب هطول الامطار. لكن بالرغم من كل شيء فقد كان هذا نذير فأل حسن. وبالمثل فان انتزاع الحصان "مانك" لحبهم واعجابهم قد وافق مسارهم المعتاد. لقد طلب شتى الأفراد البارزين والمحترمين في حائل الاذن بزيارة الحصان الرائع، وبالطبع تلقوا الاذن بذلك، وقاموا حتى بتقديم التمر والسكر له. لقد اجبرهم هذا الامر على زيارتي، ولو لكي يشكروني على السماح لهم بمشاهدة حصاني والاعجاب به. وبهذه الطريقة فان نصف سكان المدينة قد قاموا تدريجياً بزيارتي، لقد اصبح هذا الأمر مألوفاً، وفي وقت قصير اصبحت جلسات القهوة والشاي في منزلي لانهاية لها.

اخيراً وصلت الانباء الهامة : لقد انتصر الامير في معركة كبرى ضد قبائل عتيبة و مطير المتحالفتين، وكنتيجة لذلك النصر فقد غنم ٦٠٠٠ من الابل و٣٠٠ حصان، الخ... وعندما تأكد الامر لاحقاً بان اعداء ابن رشيد كانوا قد ولوا الادبار مندحرين امامه قبل ثلاث ساعات من مغيب الشمس ،

في نفس اليوم وفي ذات الساعة التي وصلت فيها الى حائل، ملأ الفخر والثقة اتباعي للدرجة التي بدا فيها على سبيل المثال كل من نصر الله، و جودو والشيخ محمد مرتاحين و يدخنون في البهو. والآن بدأ يظهر الى السطح الدجل والشعوذة، والخيال الشرقي، حيث انه بصرف النظر عن الاشخاص القريبين الذين اعتقدوا ان مقدمي كان بركة من الله فإن كل طفل في حائل اصبح الآن يعرفني كشخص ميمون، وانني استحق نفس التقدير والخدمة الخاصة مثل الاشخاص المختارين من الله. ان هطول الامطار وبالمثل شفاء حمود - كل هذا سوف يعزى بكل بساطة الى مخزوني من الحظ السعيد. وفي ايام قليلة اصبحت فجأة - لدهشتي السعيدة - اكثر الرجال شعبية في حائل.

بدأت ادخن في الطريق ، وبدا ان هذا الامر مقبول بيسر للدرجة التي كان الاشخاص في السوق والمتاجر والمنازل يقدمون لي النار لاشعال السيجارة عندما احتاج لذلك.

اخيراً حانت اكبر واعظم انتصاراتي قاطبة.

لقد سأل أئمة المدينة ومتعلموها حمود ليوضح لهم لماذا لم استفسر عن المساجد والمدارس، وانا الذي اقوم بأكبر عدد من الزيارات وأهتم بكل ضروب الامور والاشياء ؟ وهل يُفهم موقفي ويفسر على انه عدم اهتمام أو حتى عدم احترام لتلك المؤسسات الهامة. ام ماذا؟. اجبت متظاهراً بالغضب قائلاً: "في كل العالم الاسلامي سوف يتم تقبل الزيارة بتردد كبير اذا مادخل المسيحيون وغير المؤمنين في المساجد. انه يتم السماح للاوروبيين بزيارة المساجد العادية وليس تلك التي تؤدى فيها صلاة الجمعة في كل من تركيا وايران . و هم لا يفعلون ذلك الا عندما يجبرون على القيام بذلك ضد إرادة

المسلمين. لقد كان هذا هو المنطلق الذي من أجله قررت إظهار الاعتبار الخاص لهذه المؤسسات، ولذلك لم اتطرق الى موضوع زيارة لمسجد يتم تنظيمها لغير مؤمن لمجرد حب استطلاع مخز. و الآن اتنقلب الامور الى العكس تماماً، ويعتبر اظهار احترامي كنوع من الاحتقار؟ ان هذا امر غير محتمل ، وغير عادل، ولامبرر له، فتفسير عدم زيارتي للمسجد كإهانة، يجب ان يكون تفسيراً معاكساً تماماً ، فذلك كان نوع من الاحترام .

في ذلك اليوم نفسه تم ترتيب زيارتي لمسجد صلاة الجمعة، وهو مبنى جديد وجميل حقاً. وهكذا فقد سار كل شيء في حائل نحو الافضل ، وبدأت استمتع بوقتي. وقبل مغادرتي بوقت قصير قمت مع "حمود" ،الذي كان دائماً كريماً ومضيافاً بنزهة الى "عايدة" وهي قلعة من الصخر على الجبال على مسافة ساعتين من حائل . ان جبال حائل ، تقع بالقرب من المدينة شامخة كسلسلة لجبل منفرد أو كتلة جبلية واحدة. انني اقدر طول سلسلة الجبال هذه بنحو ٣٠ الى ٤٠ كيلومتراً، وعرضها بحوالي عشرة كليومترات. ان حائل تقع على ارتفاع نحو ١١٠٠ متر فوق سطح البحر، وان ارتفاع قمة جبل شمر هو حوالي ٧٠٠ متر فوق ذلك اي بارتفاع حوالي ١٨٠٠ متر.

على هذه الارتفاعات لاتوجد بالطبع اي ثلوج ، وهو من سوء الطالع لواحة حائل، والا لكان الناس قد حصلوا على مياه كافية وبوفرة، و يمكن توزيعها بالصنابير. ان هذه الجبال ترتفع عامودياً من بطن الصحراء دون انحدار انتقالي تدريجي . انها جميعاً تشتمل على اهرامات من الصخر وصخور حادة مكومة الى اعلى فوق بعضها البعض، ولها مظهر خلاب و مهيب، وحتى الوانها الليلكية الداكنة التي تصبح ذات لون وردي عند المغيب هي جميلة للغاية.

بعد وقت قصير من وصولي الى حائل، قام نائب الامير، كما قمت شخصياً بالكتابة الى ابن رشيد. و في يوم ١٦ فبراير وصل رده على الرسائل. لقد اقترح ان اقابله في الصحراء حوالي منتصف الطريق بين شقراء و الرياض . ومن المكان الذي كتب منه فانه سوف يتجه الى الشمال الشرقي الى مكان اللقاء المتفق عليه. لقد تم إرسال خمسة من فرسان حاشيته لمرافقتي الى المكان المقترح ، وحتى أكون بين يدي الامير و تحت رعايته حتى اثناء الرحلة.

في صباح اليوم التالي اي يوم ١٧ فبراير غادرت مبكراً . لقد رافقني حمود لمسافة حوالي الساعة ، وحينما شربنا آخر قهوة وداع، اصبح فجأة عاطفياً للدرجة التي صدقت حقاً معها بانه قد أُعجب بي . لقد اجهش بالبكاء بكثرة حتى اصبح الأمر منظراً حقيقياً للوداع.

خلافاً لكل التقاليد العربية ، التي تقضي بالا يلتفت المرء الى الخلف بعد المغادرة ، فان حمودا قد فعل ذلك، ففي آخر لحظة تقدم نحوي مرة اخرى واضعاً يده على كتفي قائلاً: لاتنسى بانني كنت وسأظل صديقاً وفياً مخلصاً لك في هذه البلاد. وانني قد كتبت بذلك لابنائي الثمانية، الذين سوف تلتقي بهم في مخيم الأمير. انهم جميعاً بدءاً من كبيرهم ماجد من اشجع الناس واكثرهم رهبة في كل الجزيرة العربية، كما سوف تلمس ذلك بنفسك قريباً. على اية حال فإن لك وعدي بان ابنائي سوف يكونون اصدقاءك المخلصين ، و قد كلفتهم بان يكونوا تحت خدمتك. لقد بدا لي هذا القول كوعد حقيقي، وكان له اعتبار في نفسي فأمير البدو هذا نفسه ومنذ وقت ليس بالبعيد كان غريباً بالنسبة لي. اضافة الى ذلك فقد كان الأمر ليس متوقعاً للدرجة التي لم أعرف معها كيف افسره واقبله. فهل يا تُرى كان الأمر ببساطة هو واحدة من تلك

الصفات الغريبة العامة في الشرق، وخاصة بتلك الكيفية لدى العرب، ام يجب ان يفهم على انه نوع من ضمان الحماية ضد خطر ما ؟ حماية حتى ضد ابن رشيد نفسه ، ضد "اسد الصحراء"؟، هذا الذي تتناقل الناس القصص الرهيبة عن افعاله الوحشية وتصرفاته غريبة الاطوار. ان الأمر لا يصدق، فحمود و ابن رشيد قريبان وزميلا سلاح منذ أمد بعيد. لذا لم اجد تفسيراً كاملاً لمعنى التأكيد والضمان الأخير لحمود وعلى الارجح لانني لم أجد سبباً لألجأ إلى حماية أبنائه. لقد جاءوا اليّ في اول فرصة اتيحت لهم ، وبكل أدب شرحوا لي بانهم قد تلقوا أوامر خاصة بان يقوموا بمساعدتي وخدمتي في كافة المجالات.

الفصل الثالث

الحالة السياسية
في وسط الجزيرة العربية

حدود الأرض التي يسكنها ويحكمها البدو - قبائل البدو - قبيلة حرب - الاعتداء على قوافل الحجاج الى مكة - التزام السلطان بحماية الحجاج - محاولة الأتراك تحميل ابن رشيد مسؤولية تصرفات قبيلة حرب - موقف ابن رشيد وإعتباره قبيلة حرب مستقلة عنه - إمكانية معالجة المشكلة - معاهدة الدفاع بين ابن رشيد وقبيلة حرب -تقديرات السكان في وسط الجزيرة العربية - عدد المحاربين - الوهابيون وافكارهم الدينية - القوة المتزايدة للوهابيين - سلب كربلاء والمدينة - حرب المصريين ضد الوهابيين - سقوط الوهابيين - اخلاء الجزيرة من المصريين في عام ١٨٤١-الحروب الداخلية - بداية حكم محمد ابن رشيد في حائل، فظائعة ووحشية أعماله - أحداث الرياض - تحالفات القبائل ضده - تكافؤ القوى المتحاربه - تخلي مدينة بريدة عن ابن رشيد - تهديد موقف ابن رشيد - الانتصار العظيم لابن رشيد على أعداءه - معاقبة الرياض .

قبل ان أستمر في وصف رحلتي فإنه من المفيد للقارىء ان يحصل على وصف جغرافي و تاريخي لحالة العرب .

إن الجزيرة العربية البدوية هي كل المنطقة التي يقطنها ويحكمها البدو و تمتد حدودها الشمالية في شكل شبه دائرة يشكلها خط عبر دمشق – حلب، أورفا ، والموصل . و حدها الجنوبي يقع في صحراء الدهناء التي لا أهمية لها . اما الحدود الشرقية فتمتد من الموصل الى بغداد على نهر دجلة، ثم الى الحدود الفارسية ، فالخليج الفارسي شاملاً شبه جزيرة قطر. وفي الغرب تقع فلسطين والحدود غير المحددة للمناطق التي تحكمها تركيا في الحجاز وعسير. أما عُمان وحضرموت والساحل الجنوبي فإنها لا توضع في الاعتبار حتى وإن كان يقطنها بدو ، فهي مناطق منفصلة عن نقطة مركز دولة العرب بالصحراء الجنوبية الكبرى (الربع الخالي) غير المأهولة بالسكان . ويمكن للمرء ان يفترض بانه توجد رابطة ضعيفة بينهم إن وجدت على الاطلاق . ان العرب الذين يقطنون المنطقة المذكورة منقسمون الى عدد من القبائل الكبيرة والصغيرة مستقلون جزئياً عن بعضهم ، ومرتبطون جزئياً برابطة الدم أو المعاهدات .

ان وصفاً مهما كان سطحياً لهذه العلاقات سوف يقحمنا في نقاش مربك لسياسات العرب الداخلية ، ولهذا السبب سوف اتطرق هنا فقط إلى أكثرها أهمية من الناحية السياسية، ومايعتبر بالنسبة للقارىء الأوروبي كافياً خاصة بالنسبة للمجموعات الكبرى ذات النفوذ و الأهمية النسبية .

يوجد في منطقة الهلال الخصيب قبائل شمر الشمالية والتي تحكم جنوب – غرب وجنوب نهر الفرات ،اي جميع المنطقة بين سوريا وبغداد. و هناك ايضاً قبيلة عنزة الكبيرة . في العراق توجد قبيلة "المنتفق" وأخيراً

توجد في نجد قبائل شمر الجنوبية وهم المؤسسون الاصليون لدولة حائل، والتي ضمت في الآونة الاخيرة، على أية حال، عدداً كبيراً من الاجزاء الخارجية الشيء الذي يجعل من الصعب بمكان ان يطلق عليهم اسم شعب شمر. اما قبائل البدو المتبقية في اواسط الجزيرة العربية، فهي عتيبة ومطير. اما البقية من شعب الجزيرة فيتسمون بأسماء بلدانهم حيث يقال "اهل عنيزة"، "اهل الحريق "أو "أهل الحوطة" وهكذا دواليك .

وأخيراً عند هذه النقطة لابد للمرء من يأخذ بالحسبان القبيلة التي لاتزال مهابة وهي قبيلة حرب ، والتي تسكن منطقة شرق مكة والمدينة . ان قبيلة حرب القوية ، المحبة للحروب يمكنها ان تدفع بـ ١٥،٠٠٠ إلى ١٨،٠٠٠ محارب إلى الميدان معظمهم مسلحون بالبنادق -التي تعمل يدوياً . إن هذه القبيلة هي مصدر الرعب الرئيسي بالنسبة للحجاج الذاهبين إلى مكة حيث يقومون بالاعتداء سنوياً تقريباً على قوافل الحجيج ويسلبونهم جميعاً ، أو بعضاً منهم، أو أحياناً يؤخرونهم لأسابيع وشهور. إن رجال القوة العسكرية المسلحة الذين يصل عددهم ألف رجل و يرافقون الحجاج لحمايتهم لايمكنهم دائماً ان يفعلوا شيئاً ضد الهجمات الجريئة العنيفة لهؤلاء البدو.

ان حقيقة كون خط سير قوافل الحجيج المرسوم منذ زمن بعيد ، طويل جداً، وغير واضح المعالم ، يجعل من الصعوبة بمكان حتى لقوة أكبر من هولاء الجنود الأتراك ان توفر الحماية الكافية للحجاج. ويحدث غالباً أثناء الهجمات الليلية، ونتيجة لما يتبعها من الهلع والارتباك ان بعضاً من الاجزاء المتخلفة عن القافلة تنفصل عنها ويتم نهبها.

إن الوسيلة الوحيدة الناجحة للدفاع هي ان يتم وضع القافلة في منتصف القوات ويتم التحرك بها بهذا الشكل رغم انه على أية حال ليس من

الممكن دائماً. واذا ماتم حجز القوافل – مثلما حدث قبل ثلاث سنوات – لمدة شهرين كاملين حتى وصول قوات اضافية جديدة، فإن القافلة سوف تعاني أسوأ انواع الصعوبات نتيجة لقلة الماء والطعام وما ينجم عن ذلك من تفشي كافة انواع الأمراض .

إن الأتراك قلما ينشرون اخباراً عن هذه الاحداث او لاينشرونها مطلقًا خشية الحرج في اوروبا . إن من بين القاب السلطان العديدة انه "حامي الحجيج الى مكة " وهو لقب يدل على اكثر التزاماته أهمية ومسئولية، وهكذا فإنه تحت رايته وحراسة جنوده يقوم عشرات الآلاف من الحجاج بأداء فريضة الحج . و إذا لم تتمكن القافلة من الوصول الى مكة ، أو مات الآلاف منهم أثناء الرحلة إليها، فإن اللوم بالطبع حول هذه المسألة الخاصة بأمور الدولة سيقع وفق نظرة العالم الاسلامي على الأتراك، أي على عاتق السلطان نفسه.

نظراً لهيمنة قبيلة حرب على طريق القوافل إلى مكة، فإن السؤال قد أثير في اكثر من مناسبة عما اذا ماكان هؤلاء البدو حقيقة من رعايا أمير حائل أو انهم يجب ان يعتبروا كذلك. و عما اذا ماكان للمرء ان يمارس ضغطاً على ابن رشيد وربما بصفة عاجلة جداً حتى يمكن الحصول على أمن الحجاج.

إن معارضي ابن رشيد على اختلافهم يلجأون دائماً إلى النظرية التالية: إن الأمير يدعى انه صديق حقيقي للسلطان بينما قبيلة حرب هي الاكثر ازعاجاً له. اما الأمير فيدعى انه لاسيطرة له على قبيلة حرب ، الشيء الذي يبدو غريباً للغاية، حيث ان الجميع يعلمون بالعلاقة القائمة بينهم . ان قبيلة حرب كانت دائماً متعاونة مع دولة حائل ، ليس فقط منذ بداية إدارة الأمير

الحالية بل عبر العشرين سنة الماضية أو أكثر، وان هذه العلاقة تتأكد بشكل واضح سنة بعد اخرى حيث تجد هذه القبيلة في ميدان المعركة تحت إمرة وراية حائل. ليس هذا هو كل الذي يثير الدهشة في هذا الأمر ، فقوافل الحجاج الفارسية تصل من بغداد أو البصرة ثم بعد اجراء تعداد عسير لها في حائل ، تسافر من هناك الى مكة أو المدينة عبر مناطق قبيلة حرب. ان تلك القوافل التي تحمل بريد ابن رشيد ويرافقها في أغلب الحالات قلة من فرسانه ، هي الاقل تعرضاً للهجوم عليها. وهكذا قد يستنتج المرء بان قبيلة حرب حتى وإن لم تكن من اتباع ابن رشيد مباشرة، فان رغبات الأمير هي أوامر بالنسبة لها، واذا مارغب حقاً، فيمكنه بكل سهولة ان يضع حداً لهذه الهجمات التي تتسبب بفضيحة كبرى في أوساط العالم الاسلامي.

ان كل هذا التحليل يبدو مقنعاً للغاية إلى ان يسمع المرء ايضاح ابن رشيد المختلف للغاية حول هذه الاحداث . عندما كنت معه في مخيمه أوضح لي انه لايملك سيطرة على قبيلة حرب. اذ انها قبيلة مستقلة تجنح الى الحرب، وان مصالحها قد تطابقت مع مصالحه فيما يتعلق بحملاته في الماضي وفي الحاضر. لقد كانوا دائماً صحبة جيدة عندما يشاركونه في حملاته وغاراته، اذ انه حتى الآن كان دائماً منتصراً في ميدان المعركة ، ولم يكن بخيلاً في اقتسام الغنائم معهم . وواصل موضحاً بانه فيما يتعلق بالهجمات على قوافل الحجاج فانه قطعاً لم يوافق قبيلة حرب على هذه المسألة، وانه لمن المتصور جداً ان هذه المشاكل تتسبب بمضايقة كبيرة للاتراك. وعلى اي حال، ماذا يمكن للمرء ان يفعل تجاه ذلك؟ ان قبيلة حرب تدعي ان من حقها كقبيلة بدوية السلب والنهب (وفي الحقيقة ان ذلك سبيلهم الوحيد للبقاء) وان من حقها الخروج من معسكراتها عندما يكون هناك

احتمال كبير للفوز بغنيمة ، بنفس الطريقة التي تهيمن بهاعلى شوارع مكة.

في ظل مثل هذه الظروف فإن هناك ثلاثة خيارات فقط للتعامل مع هذا الوضع:-

١ - على الأتراك تقديم عدد أكبر من القوات كحماية لقوافل الحجاج، وهذا الخيار مستحيل بسبب قلة الماء ومشاكل الإمداد الحادة

٢ - على الأتراك تدمير قوة قبيلة حرب بشكل حاسم وهي في مخابئها، وهذا الخيار هو استحالة أُخرى ضد بدو ليس لديهم مدينة او منطقة استيطان محددة، وفي جميع الاحوال يمكنهم ان ينسحبوا في وجه اية قوات إستكشافية قوية الى الصحراء المطمئنة بإمتدادها الشاسع ؛ وأخيراً،

٣ - يمكن للأتراك ان يساوموا للسلام مع قبيلة حرب ، و هذا الخيار بالطبع ممكن فقط مقابل دفعات مالية كبيرة، ولكنه لايتماشى مع شرف وكرامة قوة عسكرية عظمى.

وقد اخبرني الأمير اضافة لذلك ، وبتشديد كبير، عن حلفه القائم منذ عهد طويل مع قبيلة حرب، هذا الحلف الذي ضمن المساعدة المتبادلة بين الطرفين وفي كل الظروف، مع استثناء وحيد هو حالة حصول هجوم تركي على قبيلة حرب نتيجة حوادث القوافل المتجهة الى مكة.

كان الأمير يوضح في اغلب الاحيان قائلاً "انني محب وخادم مخلص للسلطان عبدالحميد ولكن ، على اية حال ، سيكون من الجنون الواضح بالنسبة لي ان استخدم القوة ضد من يُعتَبر جزءا مني، ومن اهم حلفائي من العرب على الاطلاق، كما ان من غير المجدي فعل ذلك. فحتى انا لا استطيع ان اقترب من قبيلة حرب ، فكل فرساني و قوة جِمالي لن تكون ذات فائده وستثبت انها غير قادرة على فعل شيء ضدها وهي محصنة في تلك الجبال

الرهيبة. "وعلى كل – اضاف مازحاً – "فانك قد تعرفت مسبقاً على بعض من أهم شيوخ حرب من الموجودين هنا بالمعسكر و تستطيع ان تخبرهم بكل شيء شخصياً وسوف تستمتع بذلك اذ انهم شياطين حقاً، و لا يخافون حتى مني، انهم اتباع لي فقط بسبب وعد معين لهم بالمكافأة ، ولانني اعُتبر هنا في هذه الصحراء السيد الوحيد حتى عليهم".

ان تعداداً للسكان في الجزيرة العربية هو أمر غير معروف، ولكن بمجرد عد المحاربين والابل يمكن للمرء ان يكون تقديراً جيداً لعدد السكان في هذا البلد، او بالاحرى في هذه الصحراء بضرب هذا العدد في ٥ ، حيث ان البدو يشكلون غالبية السكان.

ان جملة عدد المحاربين في ذلك الاقليم، والذي أعتبره موطن البدو هو بالتقريب ١٢٠,٠٠٠، والذي يعني بالتأكيد ان جملة السكان هي حوالي ٦٠٠,٠٠٠نسمة .

بالطبع فإن هذا الرقم ليس بالرقم الكبير بالنسبة لبلد ذي مساحة على اغلب الاحتمالات تعادل ضعف مساحة ألمانيا (٥٤٠,٠٠٠ كيلو متر مربع).

ان حجم المحاربين الـ ١٢٠,٠٠٠ يمكن ان يقسم وفق القبائل على هذا النحو :

- شمر الشماليون لديهم حوالي ١٥,٠٠٠ محارب.
- وجميع عنزة ٣٠,٠٠٠ .
- ابن رشيد مع كل قوات نجد عدا قوات قبيلة حرب، عتيبة، ومطير ٣٠,٠٠٠ .
- قبيلة حرب ١٥,٠٠٠.
- قبيلة المنتفق في عراق العرب ١٠,٠٠٠.

– وكل القبائل المتبقية الاخرى ٢٠,٠٠٠ محارب .

و هنا سأعرض الخطوط العامة لتاريخ وسط الجزيرة العربية الحديث.

في منتصف القرن الماضي (حوالي عام ١٧٤٦م) انشأ محمد بن عبدالوهاب طائفة الوهابيين التي عارضت ولا زالت تعارض الاسلام التقليدي المألوف مثلما يعارض البروتستانت والمتطهرون تقريباً الكنيسة الكاثوليكية الرومانية .فالوهابيين يقبلون فقط بالقرآن ، و هم لايرفضون التفاسير السائدة فحسب ، بل يمقتونها على ان لا أساس لها وانها غطرسة وقحة ، وتوسيع لحقائق الوحي الموجود في القرآن بادعاء انها تفسير له ، وتطوير لأحاديث وكلمات وافعال الرسول. وهذه التفاسير حسب وجهة نظر الوهابيين هي تغيير الى درجة التزوير في أصل الدين . ومرة اخرى باستخدام التشابه الجزئي للبروتستانية والكاثوليكية، فإن الاخيرة كانت اتُهمت بالتوسع وتطوير عقيدة ومذهب لاهوتي كشيء متميز عن التعاليم المسيحية لإلحاق الضرر بسلطة قانون الايمان المسيحي.

ان الاسلام التقليدي السائد على اية حال، ليس في موقف قوي ليدعى ان اعتراضات الوهابيين تنقص او تقلل من قدسية القرآن لانهم لايستطيعون ان يبرهنوا ان شيئاً غير مكتوب في القرآن يجب ان يقبل كتتمة أو تجديد وإبتكار. فالوهابيون يعلنون ان اي شيء لم يرد به نص في القرآن، وحتى لو كان أمر مسلم به من قبل أهل السنة او حتى الشيعة كقوانين او قواعد دينية هو مقت شائن ضد الدين الحقيقي، وان المختلقين لمثل تلك البدع المقيتة هم مزورون وقحون، ومعارضون للدين الحقيقي الوحيد، ولذلك يتوجب ان ينظر اليهم بنفس الطريقة التي يُنظر بها الى أسوأ الوثنيين.

ان هناك من الامثلة التي لا حصر لها والاتهامات المثبتة حسب وجهة

نظر الوهابيين عن كيفية تزوير ما يسمى بالاسلام التقليدي للدين النقي، او انه اي الأسلام التقليدي قد وضع نفسه في معارضة صريحة للدين النقي. ان تقديس او عبادة القديسين او الصالحين وماشابه ذلك من اشياء لهي محظورة صراحة في القرآن، ولكنها موجودة في التقاليد الدينية العثمانية التقليدية. الختان، الذي يلعب دوراً هاماً في الاسلام التقليدي هو بالكاد مذكور في القرآن، و كذلك مفهوم الخلافة ، وغيرها.

مثل هذه المجادلات وماشابهها بحكم انها في ذاتها منطقية بالكامل، لابد وانها وجدت الموافقة والاستحسان من أعرابي الصحراء بتفكيره الواضح لتعريف الاشياء، وهكذا حدث ان إنتشرت تعاليم محمد بن عبدالوهاب بصورة سريعة عبر كل الجزيرة العربية.

لقد جعل أمير الدرعية محمد بن سعود من نفسه أول أمير سياسي لتعاليم الوهابيين الجديدة. لقد قام، مدعومًا بشعبية العقيدة الجديدة، التي أحيت الروح المعنوية في قواته في نفس الوقت بغرس روح تعصب حقيقية وبالمثل شجاعة تماثل التحدي للموت. وبذلك استطاع محمد ابن سعود وخلفائه (عبدالعزيز وسعود) من إخضاع كل داخل الجزيرة العربية تحت تأثير التعاليم الوهابية. وتدريجياً سقطت المدينتان المقدستان مكة والمدينة في أيديهم، حتى أصبح الحجاج المسلمون التقليديون لا يقدرون على زيارة الأماكن المقدسة الا بأذن من الوهابيين.

لقد استغرق الأتراك بسبب انغماسهم وانشغالهم في السياسات الاوروبية وقتاً طويلاً للغاية للالتفات للوهابيين وتنفيذ حملة رئيسية ضدهم. وكان الأتراك سعداء للغاية من تمكنهم من الاحتفاظ ببغداد على الأقل . على اية حال ، كان الوهابيون قد سلطوا انظارهم على هذه المدينة الهامة كهدف

رئيسي تال لحملاتهم، وقد تم تجهيز جيش عرمرم مسبقاً لهذا الغرض .

لقد عبر الوهابيون الفرات عدة مرات مدمرين العراق العربية ومحاصرين لبغداد. وعلاوة على ذلك كان يمكن لنجاحهم ان يستمر أبعد من ذلك في هذا الاقليم لو لم يواجهوا اول نكسة لهم في حصارهم غير المجدي لمدينة مشهد علي. لقد خابت كل هجماتهم ضد اسوار هذه المدينة المحصنة، وأُجبروا على الانسحاب صفر اليدين. واخيراً، حدث ماهو اسوأ من كل هذه الأشياء . لقد سمح الأمير الثالث لنجد "سعود" والحاكم للوهابيين منذ ١٨٠١بفتح قبر الرسول في المدينة في عام ١٨١٠ تحت ذريعة تنظيفه من الكنوز، فدنسوا القبر، وتمت إزالة الاشياء الثمينة التي كانت محفوظة به لمئات السنين ، وأُعيد وضع الرفاة ثانية فيه(١).

انطلقت صرخة رعب وغضب عبر كل العالم الاسلامي، وبالرغم من ان سلطة الوهابيين لم تدمر بعد فإن هذه الحادثة كانت العلامة الفاصلة لنهاية كل المؤامرات على الخلافة العثمانية بين السلاطين الاتراك .

كان الأتراك لايزالون ناشطين للغاية في اوروبا ، ولكن محمد علي نائب السلطنة القوي في مصر ، تلقى الأمر بان يُسقط الوهابيين . وبناء على ذلك

(١) دأبت الكتابات التركية والمعادية للدعوة الاصلاحية الوهابية على ترديد هذه المقولات و لكن بعض المصادر التاريخية النجدية تؤكد الاستيلاء على النفائس الموجودة في مقام النبي صلى الله عليه وسلم للأعتقاد بان التقرب لغير الله حرام. ويشير عبدالله بن صالح العثيمين في كتابه " تاريخ المملكة العربية السعودية " الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ/١٩٩٠م ، ص ١٩٠، وبالاعتماد على المصادر التاريخية المحلية الى ذلك بقوله : " كان سعود بن عبدالعزيز قد أخذ تلك النفائس عند استيلائه على المدينه و انفق ثمنها على فقراء البلدة. وقد ذكر ذلك عدة كتاب من بينهم عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن ، الذي ذكر بان سعوداً لم يقم بما قام به إلا بعد ان أفتاه علماء المدينه بوجوب القيام به " ، اما ما يتعلق بحفر قبر النبي وإخراج رفاته واعادته الى القبر فلم تذكر المصادر التاريخية اي شيء عنه . كما ان التحقيقات التي جرت مع الامام عبدالله بن سعود عند محاكمته في استانبول لم تذكر شيء من ذلك ولم يُسئل عنه مما يؤكد ان ذلك الأمرلم يتم .(المحرر).

الأمـر ، ظهـر في عـام ١٨١١ اول جـيش من القـوات المصـرية فـي الجـزيرة العربية . كان الجيش في البداية يتكون من حوالي ١٠،٠٠٠ رجل ، معظمهم قوات ألبـانية تحت قـيادة طوسـون باشـا ، الابن الاكبـر لنائب السلطنة. وفي حوالي ذات الوقت كانت قوة الوهابيين الرئيسية تتمركز في الشمال الشرقي لإمبراطوريتهم حيث كان سعود يعُد نفسه للاستيلاء على بغداد، والتي اضطر للمرة الثانية للتخلى عنها .

لقد كانت حرباً طويلة شرسة. فبالرغم من كل التعزيزات التي احضرت من مصـر لم يتمكن طـوسـون من عمل شـيء سـوى المحـافظة علـى وجوده في الحجاز فقط. كان طوسون قد استولى على مكة لفترة قصيرة، ولكنه تلقى هزائم فـي مـعـارك اخـرى ، لذلك كـان لابد لمحـمـد علـي من ان يدخل بنفسـه مـرتين للجزيرة العربية ليستعيد الموقف بقوات جديدة ، والتي لم ينجم عنها كثير او قليل سوى احتلال المدينة عام ١٨١٥.

دون ان اخوض في احداث كثيرة عن هذه الحرب، لابد لي ان أذكر فقط باختصـار انه بدا وكأن الأتراك قد نفذوا خططهم الاصلية اذ لم يكن هناك اختـراق ناجح للمـصـريين . لقـد كـانت هذه الخطط الأصليـة تتمـحـور حـول إستعادة الاماكن المقدسة من خلال قوة واصرار محمد علي باشا، وفي نفس الوقت تدمـير قـوة كل من الوهابيين وملك مـصـر الرهيب، حليف الأتراك الذي تزداد قوته بإطراد. لكن على اية حال لم يتحقق ذلك، اذ ظهر في عام ١٨١٦ قـائد مـيدان من الطراز الاول في جبـهة المعـركة متمـثلاً في شـخص ابراهيم باشا الذي اكتسب شهرة سابقة في كل من اليونان، سوريا وآسيا الصغرى.

اسـتـقر رأي هذا الرجل المقدام ، سريعـا، على مـهـاجـمـة الوهـابيين في داخل صحرائهم. وفي معركة "ماوية " لم يهزمهم هزيمة نكراء فحسب بل أمر

أيضـاً بذبح الآلاف من الذين وقـعـوا في الأسـر حـينئـذ. من هناك تحـرك ليحاصـر الرس حيث ارتكب أول الأخطاء في حيـاته العسكرية. لقد بدا مع مهندسه الفرنسي بتطويق ما اعتقد انها مدينة هامة مستخدماً جميع قواعد فنون القتال. لكنها في الواقع لم تكن ذات جدوى له ، مثلما كان الأمر كذلك بالنسبة لقصفه وهجماته. لقد صمد لمدة اربعة اشهر خسر فيها اكثر من ثلاثة آلاف رجل ، بعضـهم قتل بأعداد كبيرة نتيجة للهجمات الشرسة المتزايدة للوهابيين من الرس ، و للهجمات على مؤخرة الجيش. اضطر ابراهيم أثناء انتظاره لقوات جديدة الى الدخول في هدنة ، الا انه قام في بعد وقت قصير بتجديد عملياته العسكرية. قام بالتحرك الى الداخل تاركاً الآن الرس جانباً، وبعد أيام من القصف استسلمت له عنيزة، وبعد عدة اشهر من الحصار استسلمت بريدة و شقراء وبعدهما بدأ ابراهيم باشا حصار الدرعية عاصمة الوهابيين.

بعـد وفـاة سـعـود في عـام ١٨١٦، تقلد ابنه عـبدالله عـرش الوهـابيين فـألقيت على عـاتقه مهمة الدفاع عن الدرعية ضد إبراهيم باشا. صمدت الدرعية لأكثر من ستة أشهر وذات مرة كان ابراهيم باشا في خطر كبير عندما انفجر كل مستودع الذخيرة تقريباً ، الشيء الذي نتج عنه وضع ابراهيم في موقع لا يستطيع فيه الدفاع إلا عن موقعه . لكن شجاعته الشخصية وعزمه وتصميمه حققا له النصر في النهاية رغم كل المصاعب. فبعد وصول التعزيزات الجديدة وكميات كبيرة من الذخيرة اضطرت الدرعية اخيراً للاستسلام تحت شروط قاسية. جميع الكنوز التي كانت قدأُخذت من قبر الرسول يجب تسليمها، ولابد من دك الدرعية وتسويتها بالارض ، وأخذ امير الوهابيين أسيراً إلى القاهرة والقسطنطينية حيث سيقرر السلطان

مصيره . و بالرغم من توسط محمد علي لصالحه فان عبدالله قد اعُدم في القسطنطينية عام ١٨١٨.

من الآن فصاعدا فإن كل دواخل الجزيرة العربية حتى الخليج قد اصبحت تحت سيطرة المصريين . كل المدن الهامة تم وضعها تحت سلطة الحاميات المصرية. اما امراء العرب وزعماؤهم فقد تم عزلهم او عينوا كاتباع للمصريين او حكاماً حسب الظروف. هذه التغييرات القليلة حدثت اثناء فترة التمرد والاضطرابات المتنوعة و التي إستمرت حتى عام ١٨٤٢.

خلال تلك الاثناء انصرف اهتمام وقوة المصريين نحو هدف اكبر. فابراهيم كان ذلت مرة قد هزم الأتراك بصورة حاسمة في معركة "كونيا" وحكم سوريا وفلسطين دون معارضة، ومنهما شن حملة ثانية ضد القسطنطينية . و نتيجة لذلك لم يستطع الأتراك حماية انفسهم الا بواسطة القوى المشتركة للقوى العظمى. لقد اصبح المصريون في حالة سأم وضجر من الحملات النائية يدفعون على الدوام بقوات جديدة لنجد الجاحدة وغير المكافئة إلى ان تم التخلي عنها تدريجياً حيث غادرت آخر قوات مصرية بحلول عام ١٨٤٢. كانت تلك بداية لفترة لاحقة من الحرب في اواسط الجزيرة العربية قدر لها ان تدوم قرابة نصف قرن .

لفترة من الزمان سارت الأمور وكان حكومة الوهابيين سوف تنهض من الحضيض . لقد أتى فيصل ، وهو ابن عبدالله الذي أُعدم (١)، الى الرياض، وتم الاعتراف به تدريجياً من قبل كل نجد تقريباً، و كان الإعتراف اسمياً فقط في الكثير من المناطق. مابين العام ١٨٤٢، السنة التي انسحبت فيها آخر

(١) لم يكن فيصل المذكور هنا ابن لعبدالله بن سعود الذي اعدم في القسطنطينية بل هو فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، والذي خلف والده تركي بن عبدالله بعد اغتياله عام ١٢٤٩هـ /١٨٣٤م. (المحرر)

قوات مصرية والعام ١٨٧٠ - ١٨٧٢ كانت هناك صراعات في نجد تدور بين القوى التالية :

(١) البيت القديم للوهابيين بيت آل سعود في الرياض والاحساء .

(٢) أمارة "حائل" ذات القوة المطردة.

(٣) دولة عنيزة بقبائلها واتباعها .

(٤) دولة بريدة.

(٥) شقراء التي كانت قد دُمرت بالفعل.

(٦) الدولة الجنوبية في الحوطة و الحريق .

(٧) قبيلة حرب.

(٨) قبيلة عتيبة.

(٩) قبيلة مطير.

بعد ان نمت وازدهرت حائل التابعة لابن رشيد بفضل دأب ومثابرة الامراء طلال ومتعب خلال الفترة مابين ١٨٤٣و ١٨٧٠، استولى الأمير محمد - وهو الخامس في تولي الحكم - على الحكم . لقد قام بطعن ابن أخيه الأمير بندر حتى الموت في شجار بينهما، وعندها تم استدعاؤه بواسطة ابن عمه حمود نائب الأمير في حائل وقت زيارتي، للحضور مباشرة الى القلعة حيث تمت مبايعته كأمير جديد .

لقد عزز محمدابن رشيد سلطته بصورة سريعة للغاية عن طريق الرعب وسفك الدماء . ففي نفس يوم تتويجه امر بإعدام ستة من افراد عائلته الذين رأى انهم يشكلون خطورة عليه، وأُعدموا في قلعة حائل. وبعد ايام قليلة من ذلك ولنفس ماذكر آنفا من اسباب قتل ثمانية افراد آخرين (من ابناء اخوانه واخواته) في منزل ابن رشيد الخاص . وعلى اية حال لم يكن هؤلاء الضحايا

هم الأخيرين الذي تتم التضحية بهم في سبيل تقوية سلطة ابن رشيد.

ان وجود دولة في حائل، منظمة مسبقًا بصورة جيدة للغاية، كان مصدر قوة للأمير الجديد. لقد بدا هذا الأمير الجديد سريعاً في إظهار وجوده في كل الشؤون الداخلية للجزيرة العربية. فلمدة عشرين سنة كان يظهر سنة بعد اخرى في ميدان المعارك، محاصراً لعنيزة ومطوقاً لها مرة، ثم ساعيا بعدها للحرب مع عتيبة و مطير، ومن ثم متدخلاً مرة اخرى في الرياض. كانت نورة شقيقة ابن رشيد المحبوبة ورفيقة صباه، والتي اشتهر جمالها عبر الجزيرة العربية حتى اثناء هذه الاحداث قد تزوجت من عبدالله بن فيصل امير الرياض الذي خُلع عن العرش للمرة الأولى في عام ١٨٧٢، وتم سجنه مع زوجته نورة في برج بواسطة ابنهما، وكانا سيموتان من الجوع. الا ان نورة على اية حال تمكنت من إخطار شقيقها عن مأزقهم المأسوي بمساعدة رسول بعثته على ظهر جواد. في تلك الاثناء تصادف ان كان ابن رشيد في جوار مدينة شقراء. وبما انه كان قادراً على الوصول الى الرياض بصورة عاجلة ومفاجئة فهو لم يستطع ان ينقذ حياة شقيقته فحسب، بل نجح ايضا في إعادة تنصيب الأمير من موضع الرهينة لابنه غير المطيع. لم يدم هذا الامر طويلا، اذ تم عزل عبدالله مرة ثانية بعد سنتين، وكان محظوظاً هذه المرة ليهرب الى حائل حيث دخل في تحالف مع الأتراك. كان مدحت باشا، الوزير الأكبر الحالي في القسطنطينية، الحاكم العام لبغداد آنذاك، قد اوضح بجلاء نوايا حكومته بالدخول الى الجزيرة العربية، خاصة بعد ان تيقن انه سوف يحصل على التعاون الكامل من ابن رشيد.

وهكذا و بالرغم من الرغبة البريطانية المعروفة للسلام في الخليج، فان الحملة التركية ضد الاحساء سارت كما كان مخططاً لها عامي ١٨٧٤ –

١٨٧٥. لقد اراد الأتراك الزحف نحو الرياض، ولكن في آخر لحظة عدلوا عن السير عبر ٣٠٠ كيلومتر من صحراء نفود الاحساء الواسعة.

اما ابن رشيد ،الذي كانت لديه نفس أهداف الأتراك، وبالتحديد ، إعادة تنصيب عبدالله على عرش الرياض ، فقد كان عليه ان ينجز هذا الهدف بمفرده بعد ان عدل الأتراك عن المسير الى الرياض. ووفقاً للأقدار فإن نتائج هذه الأحداث ادت الى حالة من الندم لدى العرب حتى اليوم . لقد قادت تلك ألاحداث الى وجود الحكم التركي غير المقبول على كل ساحل الاحساء . فمن وجهة النظر التركية فان سيطرتهم على هذه المنطقة تحقق هدف عزل منطقة داخل الجزيرة العربية عن البحر ، الأمر الذي أدى الى اشعال فتيل الحروب، والانتفاضات والتدخلات لأمد طويل في هذه المنطقة . لقد وجد الأتراك ان احتلال الاحساء شوكة في خاصرتهم حيث عانوا هناك من نكسة مؤلمة في االعام الماضي (١٨٩٣)، الشيء الذي اثبت انهم لايستطيعون حكم هذه الصحراء بطريقة مباشرة او غير مباشرة الا من خلال معرفة الطريقة الصحيحة للتعامل مع العرب.

تدخل ابن رشيد ثلاث مرات في شؤون الرياض ، وكانت له حملات لاتحصى عدداً ضد قوى نجد الأخرى، وقد كان الحظ معه دائماً في عملياته ضدهم الا في حالة مدينة عنيزة ، التي رغم كثرة عمليات محاصرتها ومقاطعتها، كانت هي سوء الطالع الوحيد في كل عملياته.

اخيراً ، في ربيع عام ١٨٩١ حدث شيء سيحدد مصير نجد لزمن قادم طويل كما اظهرت الاحداث . لقد تشكل حلف كبير ضد امير حائل القوي الذي كانت قوته تتزايد باطراد . كانت القوى البارزة لهذا التحالف هي :- عنيزة تحت زعامة المحارب العجوز الشيخ زامل بن سليم ، و جميع بيت

الرياض (آل سعود) الذين نبذوا خلافاتهم الداخلية جانباً بسبب الرغبة في الانتقام ، ومدن بريدة، الرس، وشقراء ، وجميع قبائل عتيبة ومطير .

قبل ان يصبح هذا الحلف المهم حلفاً رسمياً ، كان على كل الاعداء والمتنافسين فيما بينهم ان يدفنوا خلافاتهم ، فمائة عائلة من العائلات العريقة تخلت نهائياً عن مطالبات الدم مع اعدائها وخصومها . لقد كانت الكراهية المشتركة لابن رشيد هي التي وحدت بينهم، ولكن القوة المحركة خلف كل هذه المؤامرة هو زامل. كان زامل رجلاً استثنائياً ، فبرغم بلوغه ٦٠ عاماً من العمر ، كان يتمتع بشهرة بطل حرب والرجل الأقوى والأكثر شجاعة في الجزيرة العربية. لقد تم تعيين زامل قائداً أعلى لقوات الحلف ، وفي مقر حكومته تم عقد الاجتماع الأخير لقادة الحلف بعد إرسال خبر إعلانهم للحرب على ابن رشيد الى حائل .

لقد حشد التحالف قوة قوامها ٣٠،٠٠٠ رجل بين عنيزة وبريدة ، وبعد زمن وجيز برز امامهم ابن رشيد الذي كان لديه نفس العدد من القوات تقريباً. كان من بين حلفاء ابن رشيد المهمين ، قبيلة حرب باكثر من ١٠،٠٠٠ رجل ، وحوالي ١٠٠٠ فارس بخيولهم جاءوا على وجه السرعة من قبيلة شمر الشمالية في الهلال الخطيب لمساندة ابن عمهم امير حائل . لقد احتشد في هذه المناسبة ٦٠،٠٠٠ محارب - وهو عدد كبير بصورة غير عادية بالنسبة للجزيرة العربية.

لقد شككت في البداية في صحة هذه المعلومات بالنظر الى الخيال الشرقي والنزعة الشرقية الى المبالغة. ولكن بالحصول على بيانات دعم من مصادر مختلفة فإنني الآن اعتقد بصدق بانه كان من الممكن للغاية ان يصطف مثل ذلك العدد الكبير من المحاربين ضد بعضهم البعض حيث دارت

حمى معركة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الجزيرة العربية حسبما يمكن ان يتذكر اي انسان منذ الوقت الذي احتشد كل العرب القادرين جسمانيًا تحت راية الوهابيين للدفاع عن صحرائهم ضد ابراهيم باشا.

في ذلك اليوم على اية حال ، برز وضع لم يكن ابن رشيد يضعه في الحسبان ، و سيصبح له اهمية قصوى بالنسبة له . لقد اعتقد بانه كسب شيخ بريدة حسن بن مهنا الى جانبه و ذلك عبر مهارته الدبلوماسية وبمنحه عدة هدايا بما في ذلك ستمائة جنيه استرليني نقداً، وهو ما يعد مبلغًا ضخما لشيخ عربي في تلك الايام. إلا انه بدلاً من ان تنضم بريدة و زعيمها الى حلفه، او على الاقل تبقى في موقف الحياد حسبما توقع ابن رشيد، فقد وجد نفسه مخذولاً في آخر لحظة ، فبريدة كانت جزءاً من الحلف المضاد. هذه النكسة غير المتوقعة لم تكن مزعجة ومقلقة فحسب بل اخلت بتوازن القوة العددية ، و بشكل بالغ الأهمية على الوضع الدفاعي للبلدان المؤيدة للحلف .

لقد اصطفت قوات الحلف العربي المعارض على خط بطول ٣٠ كيلومتراً تقريباً. كانت كل من قوات عنيزة و بريدة تتولى جناحي الجيش على امتداد الخط مع ١٢,٠٠٠ من سرايا المشاة الأقوياء في الوسط . في مثل هذا الوضع لم يكن هناك من خيار لدى ابن رشيد سوى استخدام الخيالة من الفرسان المتمرسين للالتفاف حول العدو وخلق الرعب وسطهم عندما تسنح الفرصة لذلك.

ان حياة الانسان تعتبر ثمينة في الجزيرة العربية ، وان التضحية بها يجب ان تتبع التقاليد العربية المحترمة فحتى المنتصر يجب ان يكون مستعداً لفقد مابين ٥٠ الى ١٠٠ رجل كقتلى. في هذه الحالة ادرك ابن رشيد بانه لابد من مهاجمة مواقع مشاة عنيزه بفرسانه لان هؤلاء المشاة يفتقرون

للتسليح الجيد بصورة كبيرة، وفق المعايير الاوروبية للمشاة ، فقد كانوا مسلحين بالبنادق التي تعبأ من فوهتها بالبارود، والتي برهنت على اية حال انها كافية ضد الرماح فقط. اضافة لذلك كان زامل قد جلب كمية كبيرة من اغصان الشجر وقام بحفر خنادق صغيرة في الرمال لحماية نفسه وفي ذات الوقت لتحمل وطاة الهجوم الاول لفرسان ابن رشيد الى حد معين. لقد اتى النصر في البداية الى جانب الحلف .

ان الحرب التي استمرت شهراً كانت ستبقى مدة اطول. فالبدو يحتاجون الى قدر ضئيل للغاية من الطعام والإمدادات في غزواتهم . ولكن كان الأمر الجدير بالملاحظة هو تمكنهم من جلب مثل تلك الجموع الكبيرة من الناس الى بريدة .

فيما يتعلق بالحلف المضاد لابن رشيد كان ذلك أمراً يسير التحقيق، حيث انهم لم يكونوا لوحدهم، بل كان لديهم الدعم من اثنتين من اكثر المدن اهمية، هما عنيزة وبريدة، واللتين كانتا مستعدتين منذ وقت طويل لمثل هذا الحدث الكبير. اما بالنسبة لابن رشيد فقد كان الموقف مختلفا تماما، اذ كانت قواته في الصحراء وعلى بعد ٢٠٠ كيلو متر من اقرب نقطة إمداد ماء. لقد استخدمت الآلاف من الابل ليلاً ونهاراً لاحضار كل المؤن و حتى الماء الى معسكره.

لم يكن لمثل هذا الحال ان يستمر طويلاً ، خاصة ان فصل الصيف كان يقترب ولان ابن رشيد يريد ان يكون قادراً على الانسحاب من هذا المعسكر اذا اصبح مهدداً بالهزيمة.ان مثل هذا الأمر كان يبدو مستحيلاً لابن رشيد الذي كان دائماً منتصراً طوال العشرين سنة الماضية في جميع المعارك التي خاضها دون استثناء ، وهو سجل يعتمد الى حد كبير على مظهره وخوف من

ثروته الكبيرة، وسمعته الدامية. كما انه إذا ما تقهقر منسحبا من بريدة، منهزماً في تلك المواقع، فإنها سوف تكون بداية النهاية بالنسبة له. ان حلفائه من قبيلة حرب ، الذين كانوا يأملون في غنائم كبيرة تحت رايته قد عادوا بالفعل الى ديارهم. وكنتيجة لهذا ، اصبحت حائل عمليًا دون اي دفاع، وان الحلف سيسير قطعا نحوها. لقد كان ابن رشيد على دراية تامة بهذا الامر للدرجة التي صمم معها الا يعيش اي إنسحاب مهما كانت الظروف، ولهذا كان يحتفظ بمسدس وكمية من السم تحت سرجه وتحت مخدته لينهي حياته في لحظة .

في اواخر مارس ١٨٩١ قام الأمير في حالة من اليأس ببعض الهجمات الليلية على مواقع عنيزة ولكن لم ينتج عنها الا عدد قليل من القتلى. لقد بدا الآن ان كل شيء لا أمل فيه البتة ، عندها تقرر في معسكر حائل القيام بهجوم جديد وأخير . وأخيراً تم تنفيذ هذا الهجوم . لقد تم تحريك عشرين الف جمل في يوم واحد من جميع الاتجاهات ضد مشاة عنيزة فاخترقوهم في العمق و من الخلف . فقد هؤلاء المشاة عندئذ صوابهم عندما تبينوا مايحدث ، وبدون ان يكبدوا العدو اي اضرار اطلقوا وابلاً من الطلقات من بنادقهم العتيقة التي كان من الصعب إعادة تعبئتها . لقد تم قتل الآلاف من الجمال – وحتى الآن فإن الصحراء مليئة بنفاياها – ولكن الهدف تم تحقيقه.

لقد عم رعب وذعر هائل وسط قوات عنيزة الذين القوا بنادقهم القديمة وحتى رماحهم وولوا هاربين عزلا عبر السهل المنبسط امام الفرسان المنتصرين و القساة الذين ذبحوهم بالألاف. وحتى بقية الحلف لم يكن حظهم احسن حالاً. لقد اطمأنوا واثقين من حصانة ومنعة مشاتهم في الوسط، وكانوا قد حضروا من اجزاء بعيدة من ارض المعركة بعد زمن طويل ، الشيء

الذي لم يمكنهم من التدخل الحاسم في النزال. ولما بدا الآن ان الأمر أصبح متأخراً، قرر الفرسان من الرياض اولاً ، ثم عتيبة ، وجميع الباقين على التوالي، العودة سريعاً الى خيامهم ومواقع إمداداتهم ليجمعوا امرهم ويقوموا بانسحاب حذر كل الى مكانه في الصحراء. لكن لم ينجحوا حتى في ذلك حيث ان خيامهم قد دمرت خلال في هذه الاثناء (١).

وهكذا وبعد ساعات قلائل لم يتبق شيء من الحلف . وفي زمن وجيز تخلى المنهزمون وهم في حالة من الخوف والارتباك عن اي فكرة للهرب، ووضعوا كل آمالهم في البقاء على قيد الحياة من خلال طلب الرحمة عندما يحضرون أمام الأمير. لقد قُتل الشيخ زامل القائد الاعلى للتحالف مع ابنه الاكبر الذي كان قد حضر من البصرة في اليوم الاول للكارثة بعدما سمع اخبار معركة والده مع حائل بالقرب من بريدة. كما ُقتل ايضاً عدد من امراء بيت الرياض ، والبقية تم اسرهم بواسطة الأمير. في مساء نفس اليوم استسلمت عنيزة وبريدة لابن رشيد، وبعد ذلك بوقت وجيز اتى اليه مبعوثون من الرس وشقراء والرياض ليعلنوا استسلامهم ويطلبوا أمره فيما يتعلق بالوكلاء الذين سيعينهم على مناطقهم .

لقد وقع الشيخ حسن شيخ بريدة الذي حاول الهرب في الصحراء اسيراً بعد عدة ساعات في ايدى الأمير، و ُحكم عليه بالسجن مدى الحياة في حائل.

الى جانب معسكر الحلفاء وما به من آلاف الخيل، والمؤن فقد سنحت

---

(١) لقد اشتهرت هذه المعركة بأسم معركة او موقعة المليداء ، وكان يوم حسمها يوافق اليوم الخامس عشر من شهر جمادي الثاني عام ١٣٠٨هـ الموافق الخامس من شهر فبراير عام ١٨٩١م .(المحرر) .

الفرصة لابن رشيد من الاستيلاء على ١٢,٠٠٠ بندقية من النوع العتيق كغنيمة. و بما انها لم تكن ذات قيمة من الناحية العسكرية مثل بنادق الرصاص، فإنها لم تكن تستحق الاحتفاظ بها، ولذلك منحها مع العديد من الغنائم الاخرى الى حلفائه من قبيلة حرب. لقد قاد هذا العمل في وقت لاحق الى اتهامه من قبل الأتراك بانه قام بتسليح قبيلة حرب باسلحة حديثة ليمارسوا هجماتهم على قوافل الحجاج.

كنتيجة لانتصار ابن رشيد فقد خضعت كل اواسط الجزيرة العربية له خضوعا تاما. لقد اختار بريدة كبلاط حكم مؤقت له ومن هناك قام بتنظيم كافة الامور وفقاً لرغباته. في تلك الاثناء تمكن عبدالرحمن احد ابناء آل سعود الأسرى من الهرب بنجاح من معسكر ابن رشيد الى الرياض حيث اعلن نفسه اميراً عليها، والقى في ذات الوقت بنواب ابن رشيد الموجودين هناك في السجن . لكن هذه الواقعة انتهت بنفس السرعة وبالمأساوية التي بدأت بها . اذ بعد مسيرة مسلحة من بريدة ظهر ابن رشيد مرة أخرى عند ابواب الرياض التي لاحول ولا قوة لها ، والتي كان عليها الاستسلام للمرة الرابعة لرحمة او غضب هذا العدو .

لجأ عبدالرحمن الى الأتراك في الاحساء ولكن الرياض دفعت ثمن تقلبها غالياً. لقد أُحرقت بلدة الرياض القديمة المحصنة وسويت بالارض، وكان على سكانها ان يكدوا بجهد شديد للتغلب على المحنة. كان اسوأ ما تم فعله ان ابن رشيد قطع واشعل النار فيما لا يقل عن نصف المزروع من اشجار النخيل والمزروعات الاخرى حول الرياض، وتلك كانت ضربة ستكلف الواحة تعيسة الحظ زمناً طويلاً حتى تتمكن من استعادة عافيتها من المحنة التي حلت بها.

بعد عدة أشهر من الحكم المباشر قام ابن رشيد بتعيين أحد أعضاء

أسرة بن سعود، وهو ألامير محمد كما كان يلقب رغم انه فى واقع الأمر لم يكن اكثر من تابع لسيد نجد القوي منذ معركة بريدة . وعند سؤاله لماذا فعل ذلك قال لى ابن رشيد :"يجب ان تفهم ان على المرء فعل ما يُعد صحيحاً من الناحية السياسية ، وفى نفس الوقت مقبولاً فى نظرالله . لقد ظل آل سعود لمدة قرن ونصف تقريباً سلاطين في الجزيرة العربية وحتى والدي كان تابعًا لهم ، لذلك لا أرغب في ان أجعل من أفراد هذه العائلة لأجئين لامأوى لهم . لقد عانوا بالفعل مايكفي من الحظ العاثر ".

الفصل الرابع

في مخيم ابن رشيد

الرحلة إلى عنيزة – التحية من ابن رشيد – سبب ذم البدوي لوطنه – اللقاء مع ٣٠٠ فارس – الاستقبال من ابن رشيد – رأي ابن رشيد بتمرد اليمن – تفقد المخيم – حرس الأمير الشخصي – لونه المفضل – حامل الراية – الحديث مع ابن رشيد – الرسل بالجمال – إمداد المخيم بالمؤن – تقديم الهدايا–آخر وصية من الأمير – المغادرة في صحبة الأمير – آخر قهوة وداع – تأكيد ابن رشيد للصداقة.

أربعة مسيرات متتالية أوصلتنى الى مشارف مدينة عنيزة ، أكثر المدن سكانًا فى الجزيرة العربية ، التي رغم أننى كنت منهكًا فقد أردت زيارتها. حسب تقديرات العرب فإن الجوف، سكاكا،الرس ، حائل ،الرياض ،بريدة ، شقراء ، والهفوف يقطن كلا منها مابين ٨٠٠٠ و١٢٠٠٠ نسمة. أما عنيزة والحوطة من ناحية أخرى فلا بد أن بها ثلاثة اضعاف هذا العدد من السكان اذ بكل منهما حوالى ٣٥٠٠٠ نسمة.

يحيط بعنيزة سوران : سور داخلي يحيط بالمدينة نفسها، وسور خارجي و بينهما يوجد حزام من المزارع والبساتين بعرض اثنين إلى ثلاثة كيلومترات . كلا الجدارين بهما أبراج، والسور نفسه مكون من بناء لجدار مزدوج من الطين بين كل جانب من جوانبه والآخر فراغ بإتساع١٠ إلى ١٢ متر مملوء بالتراب ، مما يجعل الحائط الواحد بسمك ١٠ - ١٢ مترًا - وهو حاجز معقول ضد أى قصف للمدفعية. بعد جولة حول المسجدين الرئيسيين فيها حضرت الاستقبال فى مبنى الحكومة. لقد قام الشيخ فيصل وهو من عائلة البسام ويعمل رئيساً للمدينة وممثلا لابن رشيد بتولي كافة الاجراءات، وأخذنى فى زيارة لبعض الاجزاء الهامة فى المدينة بما فى ذلك السوق المكتظ بالبضائع.

وبعد ثلاثة مسيرات شاقة أخرى، تجاوزنا خلالها شقراء التي كانت واقعة بالجهة اليسرى لنا، عبرت مايسمى بالنفود الصغرى لبريدة حيث نصبت مخيمى فى يوم ٢٣ فبراير ١٨٩٣، على بعد حوالى مسيرة خمس ساعات من مكان اللقاء المتفق عليه مع ابن رشيد. وبينما كنت مضطجعا على فراشي دخل رسول الأمير بالأخبار التى تفيد بأنه قد وصل إلى المكان المتفق عليه منذ الأمس، وأنه يبعث إليّ بتحياته و يأمل أن الحق به على مائدة الإفطار فى صباح اليوم التالي.

عندما غادرت فى الصباح لأقوم بالرحلة الأخيرة إلى مخيم ابن رشيد، انتابنى شعور بحب الاستطلاع والإثارة لفكرة اللقاء وجهًا لوجه فى النهاية مع هذا الرجل الغريب – من نوعية الملك ريتشارد الثالث – ملك الصحراء كما كان يُعرف فى بغداد والقسطنطينية .

بالطبع، وتمشياً مع أمره ، كان لابد لى أن أترك قافلتى خلفى وأسرع متقدمًا. على بعد حوالى مسير ساعة من المعسكر قابلت كوكبة رائعة من الفرسان، الذين أُرسلوا من قبل الأمير لملاقاتى – لقد كانوا ٣٠٠ فارس بقيادة خليفة ابن رشيد، و ولي العهد فيما يبدو، وهو ابن اخيه، عبدالعزيز ابن متعب (١) . لقد كان برفقته عدد من الأشخاص الذين يعتبرون من الشخصيات الهامة الذين تصادف وجودهم في مخيم ابن رشيد وهم : ماجد، الابن الأكبر لحمود مع أشقائه السبعة ، واثنان من عائلة ابن سعود من الرياض، والذين كان ابن رشيد يحتفظ بهما كرهائن معه دائمًا، و شيخ الحوطه ، وعدة شيوخ من قبيلة حرب ، وكذلك بعض الوهابيين من شقراء والرياض، وناصر (سكرتير ابن رشيد الخاص)، وفهد (كبير أمناء الخزانة).

ان العرب رغم اسلوب حياتهم الصعب وغير المحكوم ، يخافون من الغزو بقدر خوفهم من الأشباح. انهم يرون إن ماحدث خلال الغزو المصرى وبالمثل خلال المحاولات التركية المتلاحقة كان تدخلاً فى شؤونهم واستغلالاً لنزاعاتهم التقليدية الداخلية. إن مثل هذا الفهم هو ما يؤمن به ويصدقه البدو،

---

(١) ليس لدى محمد ابن رشيد اي اولاد ، لذلك يهمس العرب فيما بينهم بأن ذلك بلوى من الله ، عقاباً له على الدماء التي أراقها . وفي جميع الشرق عدم الانجاب يعد اسوأ المصائب والى حدما نوع من العار الذي يبتلى به الأنسان. (نولده)

و كما توقع نولده فقد ورث عبدالعزيز بن متعب الحكم بعد وفاة عمه محمد ابن رشيد في اليوم الثالث من شهر ديسمبر ١٨٩٧ بعد ثمانية وعشرين عاماً في الحكم . (المحرر)

لذلك فانهم لا يجدون سببا للسماح للغرباء أن يجوبوا بلادهم ويستغلون كل فرصة لتصوير ووصف موطنهم ، على انه أكثر فقرًا وخوفاً مما هو عليه بالفعل. إن أي وكل شيء يجب أن يُنتقد ويُعالج وفقًا لأسلوب تفكيرهم وبأسلوب مختلف . و كمثال على ما أعنيه هو الدهشة التي انتابتني فى حائل عندما رأيت روعة ترتيبات المطبخ وبالمثل حجم وعدد الأوانى فى القلعة الشيء الذى قادنى إلى إحصاء عدد الفقراء الذين يتحتم على الأمير إطعامهم فى هذه البلاد الرهيبة.

فيما يتعلق بموكب المفوضين الذين أرسلهم الأمير لمقابلتى فإن الفخامة والعظمة الشرقية والخيال قد طغى على ذلك اليوم. على النقيض لما ذكرته أعلاه، لقد كان ثراؤهم وأناقتهم مؤشراً على ما تستطيع الجزيرة العربية أن تعرضه ، من الخيل والسروج المطرزة، والفرسان ذوي الملابس الأنيقة والأسلحة. بصرف النظر عن الخيول التي تم عرض افضل المتوفر منها فى نجد، فقد أستغللت الفرصة لاستعراض الاشخاص والسروج المطرزة بالذهب، و انواع التطريز، والزخارف ذات الألوان الرائعة على الحرير والسجاد.

بعد أن ترجلت لبرهة للتعارف الأولي مع أولئك الذين حضروا لمقابلتى واصلت الرحلة الى المخيم فى رفقتهم، بينما كانوا يقومون باستعراض مقدراتهم فى الفروسية فى عروض خيالية.

لقد كان العرض جميلاً ، وخصوصاً اذا اخذنا خلفية له ذلك المنظر المهيب ، فالصحراء العظيمة تحدها فى الأفق البعيد بضع لوحات رائعة لسلسلة من الجبال، ومخيم الأمير أمامي متوهجًا بواسطة شمس الجزيرة العربية الساطعة: لقد كان هذا المشهد غير العادى أكثر من مكافأة كافية لقدومى حتى هذا المكان القاصي.

عند وصولى للمخيم، استقبلنى ابن رشيد بالكيفية التالية:

لقد تم نصب خيمة هندية جميلة للغاية يفوق جمالها الخيمة العادية ثلاث مرات على تكتل من الرمال. وكان المدخل الأمامى للخيمة يعطي الانطباع انه منصة عالية. لقد شكلت واجهة الخيمة جانبا واحدا لمربع ، أما الجوانب الأخرى فتشكلت ب ٢٠٠٠ من الجنود كحرس شرف. لقد أظهرت الصورة فى مجملها مع المخطط العام للمخيم وتنظيم المشاهدين موهبة معتبرة لاخراج عرض مسرحي.

لقد تقدمت راكبًا عبر الميدان النابض بالحياة إلى ساحة فسيحة يرافقنى كل من عبدالعزيز و ماجد، الأميرين الأولين لأسرة حائل. بعد أن ترجلت واقتربت من الخيمة، قام ابن رشيد وتقدم بضع خطوات نحوى، ثم دعانى للدخول فى خيمته.

ان محمد ابن رشيد الذي يبلغ الآن حوالي الثالثة والخمسين من العمر ذو قامة تكاد تكون متوسطة حيث كان بدينًا و قوي البنية. لقد كانت تقاطيع وجهه ناعمة ومشذبة. وعيناه حادتان وذاتا نظرة ثاقبة للغاية، للدرجة التي تبدوان أحيانًا وكأنهما نظرات نمر. كانت لحيته السوداء غير طويلة ومشذبة قليلاً أسفل الخدين وتتناقص تدريجيًا الى نقطة أسفل الفك مباشرة، وهى من طراز اللحى التي تُعرف فى أوروبا "بالاسباني". لقد أخبرني لاحقًا أن لحيته قد صارت بيضاء مشيبة للغاية، وأنها تظهر بذلك السواد فقط لانه قد صبغها.

أول حديث جرى بيننا كان ذلك التمهيد المتحضر المعتاد ، وهو السؤال عن الصحة، والرحلة الشاقة وماإلى ذلك، بالرغم من أن الأمير لم يستطع تفادى التطرق إلى بعض المسائل ذات الطبيعة الحساسة.

لقد أدار دفة الحديث ببراعة ليحول النقاش حول التمرد في اليمن سائلاً عما إذا كنت أثناء رحلتي قد رأيت جنوداً أتراكا هاربين من الخدمة فى اليمن. إنه لن يكون من المقبول له أن تصبح نجد ملاذاً لكل الجنود الهاربين من خدمة السلطان ، ولكن فى ذات الوقت لم يكن ليدري ماذا يفعل حيال ذلك، مثلاً، أيمكن للمرء أن يرفض تقديم المساعدة لبعض أولئك الناس الذين وصلوا وهم أنصاف موتى بعد مواجهة الصعوبات التى لاتوصف ؟ وقال الأمير "إننى سوف أقوم بإرسال بعض أولئك الأشخاص اليك" واضاف "إنك سوف تعرف الكثير منهم. إن هنالك بعضًا منهم ممن يتكلمون لغة غير معروفة(١)، ولايستطيعون حتى فهم زملائهم من الأتراك . و ربما يستطيع مرافقك نصر الله أن يتحدث مع هؤلاء الناس، حيث أنه يفهم عدة لغات، إذ على الأقل، أستطيع أن أتاكد بأنهم لم يؤمروا بإخبارى بروايات معينة ، وعليه فانه سيكون عملاً يستحق المحاولة اذا ما استطعت إعادة بعض هؤلاء الأشخاص الغرباء إلى مواطنهم فى رحلاتي اللاحقة ".

إن "اليمن" اعترف الأمير قائلاً " لاتدخل حقًا ضمن إهتماماتي، ولكننى لا أستطيع كبت الاحساس بالسخط لما يدور هناك من أعمال وحشية و يقال أن حوالى ستين كتيبة من الجنود النظاميين يقاتلون فى تلك البلاد الجهنمية لمدة عامين حتى الآن ولا تزال نهاية هذه الحرب غير منظورة. وبالطبع فإن ذلك يسر "الباشوات" لأنه كلما طالت وامتدت الحملات والاضطرابات، كان هناك الكثير مما يسرق . أن كل ذلك تقع مسؤوليته على

---

(١) غير بعض الاكراد ، كان هناك اثنان لا يتكلمان الا اللغة الكلدانية وهما من المنطقة الواقعة خلف الأحمدية وقد اخذتهم و بعض الاخرين معي ، ولحسن الحظ استطاعوا العودة الى مواطنهم الجبلية. (نولده) .

الحكومة التركية. إن السلطان بوصفه ملكًا مرموقًا ومحبوبًا لايستطيع بالكاد أن يعي أن كل الباشوات دون استثناء هم رجال أشرار يدمرون كل شيء فى طريقهم".

إستمر الأمير فى هذا الاسلوب الساخن مظهراً المرارة الداخلية لجميع العرب ضد كل ماهو تركى، وهو حنق جامح يحتاج فقط إلى ابسط إستفزاز لكي يجعلهم غاضبين بعنف شديد. لقد سعدت عندما وصلت المحادثة إلى توقف مؤقت ودعاني ابن رشيد لتفقد مخيمه.

لقد كان هناك ماجملته ١٠٠٠٠ من الرجال الذين سوف يغادر نصفهم فى اليوم التالي . و كانوا يعتمدون على الامداد بالماء من مياه الأمطار المتجمعة فى غديرين طبيعيين. و كما ذكرت سابقًا فإن الأمير باستطاعته أن ينشر أكثر من ٤٠٠٠٠ محارب متى ما أراد. منذ معركة بريدة لم يطرأ أى حدث ذو أهمية يتطلب الابقاء والمحافظة على أى عدد مقارب لمثل هذه القوة الكبيرة. وأنا أعتقد شخصيًا، انه في الظروف الحالية فإن قوة من ١٠٠٠٠رجل مجتمعة هنا يعتبر فائضًا، أو على أقل تقدير نوعا من الترف والرفاهية المحسوبة لأغراض النفوذ والهيبة.

يحيط بالأمير فى جميع الأوقات حرس شخصى مكون من ٢٠٠٠(ألفين) من الرجال المختارين بعناية وهم أفضل المسلحين من راكبي الابل مع أفضلها وأسرعها. و مع هذا الحرس الامبراطورى جيد التدريب بصورة غير عادية والذى هو على أهبة الاستعداد و رهن الاشارة لمغادرة المخيم، يمكن لابن رشيد أن يظهر فجأة على بعد مئات من الكيلومترات ، ليدخل الرعب فى نفس أي من البدو الذين قد يتمردون عليه ، أو لا يقومون بدفع الضرائب. إن المكافأة على العمل فى خدمة حرس الأمير هي الامداد بالمؤن والملابس

بكميات أكبر بكثير مما يحلمُ به البدو و غيرهم . إن لكل منهم منزله الخاص وعائلته فى حائل ، ويعامل بكرم و بنصيب من الغنائم الناتجة عن الحروب وغارات النهب.

عندما يتأمل الإنسان يرى أن خلف هذه السلطة نوعا من الدولة تتمتع بثروة لامثيل لها حسب مقاييس العرب ، و لهاحلفاء ، مما يجعل المرء وحتى الاوروبي يفهم ولا يستغرب أن بدويًا يحكم كل هؤلاء الناس ويكون ملكا لصحراء ورجل دولة .و لابد انه سُيعتبر ايضاً عند الشرقيين رمزاً للعظمة والحظ ، وبالتالي فهو محسود كزعيم .

إن اللون المفضل للأمير هو اللون البرتقالي الذهبى الداكن، وان جميع أولئك الذين من حوله وفى خدمته يرتدون ثوبًا طويلاً من نفس اللون. ولابد وأن يكون ابن رشيد قد اعتاد على الملابس الفاخرة في الأزمان السابقة. ولكننى لم أشاهده مطلقًا قد ارتدى شيئاً غير عادي ، وأنه فقط، عندما يقوم المرء بتفحصه عن قرب يبدو له واضحًا أن المادة المصنوعة منها ملابسه هى من أكثرها كلفة على الاطلاق ، إن بعضًا من معاطفه مثلاً مصنوعة من الشال الكشميرى الفاخر والغالي جدًا بالرغم من أنه يبدو عادى المظهر.

إن علم دولة ابن رشيد أحمر بلون الدماء مع الكلمات المشهورة "لا اله الا الله محمد رسول الله " مطرزة عليه.

إن حامل هذه الراية هو أكثر الأشخاص أهمية فى حاشية ابن رشيد وتتم معاملته وفق ذلك. انه يسكن فى خيمة خاصه منصوبة خلف خيمة الأمير ويعيش حياة غريبة للغاية فى حراسة الرأية. أثناء زيارتي ، كان حامل هذه الراية صغير السن و ربما لم يكن عمره يتجاوز ٢٠ او ٢١ سنه، وكان مهندمًا وأنيق المظهر. وخرج الأمير عن عادته ليقدمه لي شارحًا بأنه فى الحالات

الاستثنائية فقط يكون من الممكن لشخص صغير السن أن يقلد مثل ذلك المنصب الهام. لقد كان والده حامل الراية في معركة بريدة حيث سقط قتيلاً، وقد كادت الراية أن تُفقد نتيجة لذلك، ولكن الابن الذي كان عمره آنذاك ١٧ او ١٨ عاماً، وهو الشاب المعني، أنقذ الرأية وأحضرها إلى موقع الأمان. لذلك فإنه في مقابل تلك الخدمة، وتخليداً لذكرى والده الذي سقط قتيلاً لم يكن للمرء سوى منحه ذلك المنصب.

لقد بقيت مدة عشرة أيام بأكملها في مخيم ابن رشيد، وبالطبع التقيته مراراً خلال هذا الوقت. كان يحضر صباح كل يوم قبل أن أكون قد استيقظت ليزور الحصان "مانك" ويحضر له السكر والتمر. لقد أقلقني إعجابه الزائد بحصاني، وبفكرة أن ذلك يعني أنه يجب عليّ ان امنحه حصاني كهدية.

عندما فاتحت الأمير بحذر حول هذا الموضوع تلقيت الإجابة المطمئنة واللائقة في ذات الوقت: إنه قد تلقى مني مسبقًا مختلف الهدايا، واذا ماتعلق الأمر بالخيل، فإنه يصبح من غير المناسب إذا كان وهو السيد الأول لأولى دول العالم في الخيل ، أن يقبل واحداً منها من شخص أجنبي. وكانت تلك الإجابة ليس لها من رد مقابل.

في صباح كل يوم كان ابن رشيد بمجرد أن يعلم بأنني قد استيقظت ، يرسل إليّ بإنتظام مستفسراً عن المكان والزمان الذى يجب أن نلتقي فيه، وعما اذا كنت أفضل أن احضر اليه لتناول طعام الافطار، أم أنتظره ليقوم بزيارتي. بالطبع كنت أسرع دائمًا مستجيبًا لطلبه بالرغم من أنه لم يكن يقصد أن يضعني تحت أي ضغط ، وعندها أرتدي ملابسي وأمثل أمامه. أحيانًا كثيرة لم يكن لينتظرني، بل كان يحضر بنفسه ، وفي مناسبتين حضر

بمفرده فقط دون مرافقيه الدائمين والمسلحين بالسيوف . على أية حال لم يكن هذا من قبيل الخطأ من جانبه، حيث أدلى بملاحظة ضاحكًا بأنه لن يُقتل بواسطتي ولا بواسطة أحد من أتباعي، أو أن أحدًا سيدس السم فى قهوته، وأنه يجب عليّ أن أحميه مثل مايفعل أتباعه تمامًا ضد أي هجوم مفاجىء من شخص مختل العقل . مثل تلك الملاحظة تطلبت أن يقف بعض أتباعى للحراسة والمراقبة أمام الخيمة أثناء تواجده معي، الأمر الذى سره كثيرًا. إن اللقاءات المطولة كانت تتم مساءاً و تعقد فيها مجالس الشاي والقهوة مع ابن رشيد بعد الانتهاء من الصلاة و من طعام العشاء، وكانت تستمر طويلاً وأحيانًا حتى فجر اليوم التالي.

إن الأمير لم يكن رجلاً ذكيًا وعادلاً فحسب ، بل كان راويًا ومصورًا للناس والأحداث بشكل منقطع النظير للدرجة التى كنت أظل أستمع له لساعات عديدة فى دهشة واعجاب. و باستثناء السلطان، كان وصفه في الغالب قاسيًا و لاذعاً لكسل وغباء الإدارة التركية وساستها. و بمرح كبير ومزحات لاذعة كان يسخر من رجال الدين الشيعة والسنيين التقليديين ومعتقداتهم وكان يصفها بكونها عبادة للخرافات والأساطير غير العقلية. كان أحد المواضيع الرئيسة التى يكثر العودة اليها هو شجبه لسكان مكة والمدينة. كان ينتقدهم بعنف وبلا هوادة، حيث يعتقد أن الدين فى هاتين المدينتين المقدستين قد تم تحريفه تدريجيًا وتجاريًا مما نتج عنه كل أنوا ع المقت والبغض الشديد والرياء والنفاق والفساد والفسوق والسموم والقتل وكل أنوا ع الموت العنيف. لقد كانت تلك الآراء هى نفسهاالآراء التى سمع وقرأ عنها المرء سابقًا عن لوثر وكل البيورتانيين الآخرين ضد القدس وروما. ولكن الأمر كان مذهلاً للغاية أن تسمع من شفاه بدوى مثل تلك العبارات التى تتعلق بالأفكار والمعتقدات الاسلامية.

لقد كان الأمير مشتركًا فى عدد من الصحف العربية والتركية فى مصر وسوريا والقسطنطينية . وكان يقوم بكتابة العديد من الرسائل المطولة. و أثناء إقامتى كان يحضر على الاقل مرة يوميًا إلى المخيم حامل للبريد وأحيانًا أثنان أو ثلاثة من مختلف الأقاليم.

بالاضافة إلى المحادثات والأنس فقد تم تنظيم بضع رحلات صيد بالصقور فضلاً عن بعض أمسيات رقصات الحرب بالسيوف والى قام بأدائها أكثر من ألف من الرجال المسلحين. لقد أضيئت الصحراء وتوهجت الخلفية بإشعال نار كبيرة ، وكانت ضوضاء النفير البطيئة العابسة وقرع الطبول و الرقص و أداء أغانى الحرب: كل شيء كان مبهجًا، متوحشًا، ورومانسيًا.

فى يوم ٢ مارس حضر الامير محمد ال سعود أمير الرياض إلى المخيم ليوم واحد. لقد كان رجل فى حوالى الأربعين من العمر، ويتمتع بسمعة مفكر عربي ضليع، ولكنه سياسيًا مجرد تابع لابن رشيد.

فيما يتعلق باحتياجاتي من الطعام أثناء اقامتي فى المخيم، فقد كان الأمير يهتم بهذا الأمر جيداً. حيث كان يقدم المساعدة بكرم فياض لطباخى الحاج صلاح.

كانت اللحوم والزبدة الطازجة يتم تموينها من شقراء والرياض اللتين تبعدان حوالى الستين كيلومتراً عن المخيم. و بعد أن بدأت الحرارة ترتفع باطراد أثناء النهار كان يتم احضار هذه الإمدادات ليلاً مع مراسلين على الابل. لقد علم الأمير من مرافقى بأنني أفضل اللبن والقشطة المنتجة من الأبقار عن تلك التى من الضأن والمآعز فأُحضرت بقرة إلى المخيم.

لقد استطاع الصيادون المهرة من جلب اعداد من الصيد البرى (البقر الوحشي ، والغزلان ، والأرانب ، وبعض الطيور القابلة للأكل) وذلك بمساعدة

كلاب وصقور الصيد الرائعة. لقد كان كل ذلك كرم ضيافة كبير للغاية ولكن بالرغم من كل شيء فقد حان وقت رحيلي.

كنت بالطبع قد أحضرت معي الى نجد عدداً من الهدايا خصيصاً لابن رشيد. لقد احضرت له غطاء سرج غالي الثمن موشى ومطرز بالذهب، وبعض القطع العسكرية النادرة ، وعدداً من المسدسات والأسلحة الأخرى، منظار ميدان وأشياء أخرى من هذا القبيل، إضافة الى مائة متر من الحبل النادر ، وهى ايضاً ذات قيمة كبيرة بالنسبة لأبار المياه العميقة لأن الحبل العادى يهترىء سريعًا بواسطة سحب المياه ورفعها بواسطة الجمال فوق الحجارة الحادة. فوق ذلك كله كان هناك مبلغ كبيراً من المال كان لابد من تقسيمه على مختلف أتباع الأمير كـ "بخشيش"، والذى بدأ بالقهوجى وحامل الراية نزولاً إلى جميع من هم دونهم من الشخصيات.

لقد كان الأمير كريماً للغاية أيضًا. لقد حظى كل أتباعى من المرافقين دون استثناء على هدايا عبارة عن ملابس، و قطع ذهبية وجمال.

في اليوم السابق لرحيلي تلقيت من الأمير أيضًا الهدية الخاصة بي وكانت عبارة عن فرس وثلاثة مهور أصيلة من سلالة خيل ابن رشيد المفضلة من المهرة "فرحة" وهى المعروفة رسمياً كأولى الخيل العربية أصالة. و بوصفه أميراً للعرب كانت هذه الهدايا هى أقيم شىء يمكنه أن يهدينى إياه. فوق كل ذلك أهداني العديد من الأشياء الأخرى مثل الجمال ، وقِرب كبيرة من الماء، ومؤن كافية لرحلتى عبارة عن كمية هائلة من الأرز والشعير والتمر والزبد والتى أحضرت إلى داخل المعسكر. وعدد من الصناديق معبأة بالخبز السكري وكانت كبيرة للدرجة أن أقوى الجمال لم يكن يستطيع حمل اثنين منهما .و قد حملنا الجمال مرة أخرى في اليوم التالى بهذه التموينات. وعندما

ذكرت أن المؤن كانت فائضة ، أخبر ابن رشيد طباخى بأن الجمال اذا لم تستطيع حمل المؤن فإنه من الضروري إضافة عدد آخر من منها.

فى مساء يوم ٤ مارس عندما حضرت آخر مجلس شاي لي مع الأمير، إنتهز الفرصة ليقدم آخر نصيحة حول رحلة المغادرة.

بدأ قائلاً "إن كل شيء ممكن قد تم عمله لكي تكون رحلتك إلى بغداد مأمونة ومريحه. إن جميع أتباعى وحلفائى من العرب قد تم إعلامهم بالطريق الذى سوف تسلكه، وقد أُمروا بأن يقدموا لك المساعدة حيثما كانت ممكنة. ولقد كتبت الى الحاج حسن (حاكم عام بغداد) و إلى ابن هذال (شيخ قبيلة عنزة) وهكذا فإن كل شيء هو كما يجب أن يكون لهذه الغاية. إننى أمدك بخمسة عشر من أفضل أتباعى بما فيهم عبدالرحمن وهو أحد أكثر الثقات والأتباع المخلصين لي [١]. إن من المستبعد جداً أن يحدث لك أي شيء أثناء رحلتك. إن قبيلة كبيرة من البدو سوف لاتقدم على شيء إما لخوفهم من الأتراك أو حتى لخوفهم من الوقوف ضدي. وفيما يتعلق بإحتمال مقابلة عصابة نهب صغيرة فإن أتباعى وأتباعك سوف يشكلون قوة أكبر منهم. إن احتمال مجابهة مثل هذا الخطر يكون فقط أثناء آخر ثلاثة مسيرات قبل مشهد علي (النجف). يجب أن تظل مرتدياً لكامل ملابسك وسلاحك أثناء هذه الفترة حتى أثناء الليل، واعمل على أن تظل أفضل أربعة من خيلك مسرجة في كل الأوقات فإذا ما كانت القوة المهاجمة من العصابة تبدو كبيرة جداً، فعليك أن تمنع أتباعك من إطلاق النار لتفادي أى سفك للدماء اذ سيكون غير

(١) يقوم عبدالرحمن عادة بقيادة قافلة الحجاج الفرس من بغداد الى مكة كأمير للحاج . (نولده)

ضروري على الاطلاق. و بما أنك حصلت على التأكيد منى بأن أي أمتعة تسرق سوف تعاد اليك فإن الأهم هو الا تقع فى الأسر شخصياً، لذا فإنني أنصحك بأن تهرب من أى اشتباك، ولابد لي أن أترك لك الخيار فى إختيار حصانك ، اما أحد المهور التى أهديتك اياها او حصانك "مانك" أو ليلى. إن اختيارك شيء ذو أهمية كبيرة، و ربما يجب أن يكون فى هذه الحالة "مانك" إذ انه بالاضافة الى قوته، فانه قد برهن لسنوات عديدة، عندما كان لايزال ملكًا لمحمد باشا فى بغداد بانه أسرع حصان فى الهلال الخصيب. على أقل تقدير ينبغى أن تتأكد بألا تقع المهرتان والحصانان الآخران فى أيدي مطارديك. إن اسراعك بالحصان مابين ١٠ الى ١٢ ساعة سوف يوصلك الى النجف ، يجب عليك ألا ترهق حصانك ارهاقًا تامًا. ان آخر أربع الى خمس ساعات قبل مشهد علي هى القطاع الأكثر خطورة. واذا وصلت الى مرحلة حرجة وكنت وحدك و لا سلاح لديك ضد بضعة لصوص ، سوى حصانك فاستخدم أثناء النهار البوصلة التي لديك ، وأثناء الليل عليك بكل بساطة إتباع اتجاه نجم القطب الشمالى وعندئذ سوف تصل بكل تأكيد الى مشارف القبة الذهبية لمشهد علي " .

لقد تحدث معي الأمير فى هذا الموضوع لمدة طويلة من الزمن مغطيًا جميع الاحتمالات المتصورة.

لقد بدأ ابن رشيد تدريجيًا فى إظهار شيء من العاطفة تجاهى بالرغم من الحقيقة بأنه وأحد من اولئك الأشخاص الذين لايسمحون مطلقًا لمشاعرهم الحقيقية أن تظهر على السطح. وهنا اجد لزامًا عليّ أن أكرر القول بأنه كان

دائمًا كريمًا معي حتى النهاية ، ولقد استمرت الصداقة بيننا حتى بعد رحيلي(١).

فى يوم ٥ مارس غادرت مخيم ابن رشيد لأنطلق في مسيرتى والتى تبعد ١٩ يومًا دون إنقطاع ليوم واحد للراحة أوصلتنى الى مشهد علي، وهى مسافة تقارب ٨٤٠ كيلومترًا .

لقد رافقني الأمير عند المغادرة لما يقارب الساعة مع رهط كبير من الأتباع، وكلاب الصيد والصقور فى المقدمة ، وقد كان مشهدًا ملوكيًا بحق.

عندما بسطت السجادة للوداع الأخير، ردد ابن رشيد بشيء من التشديد كل التأكيدات لأواصر الصداقة التى كان قد ذكرها فى وقت سابق، واذا ماكنت أرغب فى مزيد من الخيل ، أو الكلاب ، أو الصقور أو أي شيء آخر، و إن لي مطلق الحرية فى الاختيار من أى من الموجود. واضافة الى ذلك فإننى لو كتبت له حول اي أمر، فإنه يمكننى ألاعتماد عليه في تلبية أي طلب يكون من ضمن سلطاته فى كل الجزيرة العربية. و إن كنت أحتاج الى خيل فى المستقبل فإنه سوف يبعثها إليّ.

أخذ الأمير عددا من نماذج توقيعاتي وختمي الشخصي ووعدنى بأن أي شخص يحضر الى بلاده حاملا معه رسالة بتوقيعي وختمي سوف يعامل

---

(١) ضمن المناسبات التي تم بها اثبات هذه الصداقة كانت المناسبة التالية : لقد كان هناك ولدان من أبناء زامل شيخ عنيزة الذي قُتل في معركة بريدة التي تم وصفها في الفصل الثالث ، يعيشون مطاردين في الكويت . لقد اتوا الى بغداد يرجونني التوسط لدى ابن رشيد بالنيابة عنهم . لقد فعلت ذلك من خلال رسالة لابن رشيد الذي وعلى وجه السرعة حقق لهم جميع رغباتهم ، كما وصلتني الاخبار قبل مغادرتي بغداد. لقد اعيدت اليهم جميع البيوت والاملاك التي تمت مصادرتها قبل اكثر من عامين ، كما تم تحقيق رغبتهم بالرجوع الى عنيزة .(نولده)

كصديق حميم - واذا ما كان ذلك الشخص هو ابن عمي [1] الذى قمت معه بعدة رحلات فى الماضى فإنه سوف يعامل بنفس الطريقة التى عوملت بها تماماً.

أخيراً حانت لحظة الإحتضان للوداع الأخير، والذى جرى في جدية ووفق اللياقة العربية دون النظر أو الالتفات إلى الخلف.

(١) الكونت اندريه كروتز الذي كان في الاساس يريد ان يرافقني في هذه الرحلة ولكن شللا اصابه في ذراعه اليمنى حال دون ذلك.(نولده)

الفصل الخامس

إلى مشهد علي (النجف)

الأفعى ذات القرون كفأل سَعدٌ - الأفاعي في بلاد مابين النهرين وداخل الجزيرة العربية - إثارة رحلة الصحراء - الاستراحة عند الاشجار الشوكية - درب زبيدة - حدوث شح في الماء - كفاءة أداء جمل السباق - على مرأى من قباب مشهد علي الذهبية-العاصفة الرملية - استراحة في "عين سعيد " - سكان غير لطيفين - النجف - قناة الهندية - مشهد علي - مستعمرة فارسية - حضر نقل جثث الموتى- تهريب جثث الموتى - الزعفران في جثث الموتى - وقاحة فارسية - تزلف السلطات التركية - في مسجد علي- تعصب الناس - مغادرة مشهد علي .

في صباح اليوم التالي تم اكتشاف حية تماثل افاعي الكوبرا وذات قرون في بساط خيمتي ويبدو انها قد قضت الليل كله هناك في استمتاع تام. بالطبع فرح جميع اتباعي ورفاقي في الرحلة لأنهم اعتبروا ذلك فأل سعد وذلك يعني في الجزيرة العربية :أن المرء قد طوى كل المخاطر خلفه . ومن هذا المنطلق فإنه يفترض الا يقوم المرء الذي يكتشف أفعى عند بداية الرحلة بضربها وقتلها. رغم هذا التصور الخرافي فقد قمت بقتل الأفعى وبعملية تسلية كبيرة حيث انني علمت من القرآن ان كل من يؤمن بالسحر والحظ وماشابه ذلك ملعون ويوصف بأنه غير مؤمن .

بالنسبة لي شخصياً، وبما انه لا يمكنني فعل شيء تجاه مثل هذه الأفاعي الخطيرة والتي تقضي على حياة الانسان في دقائق محدودة ،فقد صرت اضع سريري طوال الليل على ارتفاع اربع الى خمس اقدام وقمت بلف القوائم بحزام شوكي بشكل مزدوج لكي أمنع اي تسلق للزواحف على قوائم الخيمة . وبسبب خوفي ونفوري من الأفاعي فقد كنت وفي كل رحلاتي اتخذ الإجراءات الكافية ضد هذه الحيوانات الخطرة حتى أنني اقوم بالبحث في الكتب عن اي ثعبان قتل اوحتى تمت مشاهدته.

في مجال الأفاعي فإن بلاد مابين النهرين بالنسبة لي هي من اسوأ البلاد المعروفة حيث يشاهد فيها ٤٥ثعباناً شهرياً في المتوسط . اما في داخل الجزيرة العربية ، فالمتوسط هو مشاهدة ثعبان واحد يومياً، وبعدها تأتي الولايات المتحدة والمكسيك وكردستان بمعدل أقل . في الهند وبورما سيئة السمعة فإنه وخلال تسعة أشهر قضيت ما يقارب نصفها مخيماً في الأدغال

فإنني لم اشاهد اكثر من اربعة من أفاعى الكوبرا في الاحراش (١).

لقد كانت مسيرتنا إلى مشهد علي طويلة ولم تتخللها إلا أحداث قليلة ومع ذلك من غير الممكن ان احداً سيجد مثل هذه الرحلة مقبولة ويقدرها مثلي. فكون الانسان يتجول وحيداً في تلك القفار الرائعة ويتنفس هواءها النقي ، وبنفس الوقت يشعر بأنه محاصر بهذا العالم الواسع ذي الطبيعة الخاصة ، لا يعطي الاحساس بأن المرء سيد فحسب بل هو السيد ذاته.

توجد على الخرائط بالفعل بضعة اسماء موضحة ، ولكن لا يوجد حقاً في كل تلك المسافة الطويلة التي تساوي اكثر من ١٢٠ ميل اي مكان يقطنه بشر . ذات مرة واحدة فقط رأيت عن بعد ثماني اشجار كبيرة قائمة ومتماسكة . قفز الى ذهني على الفور السؤالان المثيران : كيف وجدت هذه الاشجار بداءة هنا، وايضاً الشيء الملفت كيف حدث انها لم تستخدم من قبل البدو كحطب منذ امد بعيد لاتقاء برد ليالي الصحراء ؟

اسرعت بالحصان نحو تلك الظاهرة النادرة ، و عندما وجدت نفسي بالقرب منها إنجلى على الفور سرها الغامض. إن اياً من هذه الاشجار التي تساوي شجرة صنوبر لها من العمر مائة عام في ضخامتها ومحيطها، وكانت تقف وكأن سياجا من الشوك حولها تم عمله بإتقان وبشكل لم يسبق له مثيل. كان شوك هذه الأشجار كثيفاً للغاية وملتفاً على اغصان رفيعة ترتبط

---

(١) ان رحلتي في هذه البلاد كانت اثناء موسم الشتاء حيث الطقس يكون باردا للغاية ، وايضاً خلال رحلة العودة لم يكن موسم الحرارة قد دخل بعد، وعلى اية حال فقد شاهدت هناك أفاعي بعد مغادرتي حائل - ووفق معلومات مستقاة يفترض تواجد الأفاعي بكثرة في الصحراء خلال فصل الصيف . اثناء تواجدي في معسكر ابن رشيد كانت عدة منها قد قتلت وتم عرضها عليّ وكان بينها بالفعل حياة ذات قرون وايضاً حيات الكوبرا.

ببعضها البعض للدرجة التي لا يستطيع معها المرء ان يدخل يده عبرها ، ناهيك عن جذوعها التي تبعد ما بين ١٥الى ٢٠ قدما عن الأكاليل الخارجية . وهكذا كان السبب واضحاً لبقاء هذه الأشجار ربما لحوالي مائة عام او اكثر دون ان تتعرض للمضايقة، اذ ان الأمر كان يتطلب الكثير من التحضيرات والجهد الكبير لإزالة جذوعها.

بعد ان وزعنا الماء اللازم لتلك الليلة بيننا اختصرت المسير هذه المرة بمقدار ساعة لكي انصب مخيمي في ظل هذه الأشجار النادرة التي لا يمكن وصفها الا انها من أشجار الغابات .

بعد مضي سبعة مسيرات من مخيم ابن رشيد وصلت الى ما يسمى "درب زبيدة " . وهو الطريق الذي أمرت زبيدة الزوجة المفضلة للخليفة هارون الرشيد قبل الف سنة بوضع اعداد كبيرة من برك الماء والآبارعلى هذا الطريق الممتد من بغداد الى مكة . لقد عانت هذه الامبراطورة العظيمة في احدى المرات من العطش وهي تسير عبر هذا الطريق فقررت ان توفر للمؤمنين الآخرين من حجاج مكة وسائل تجنبهم نفس المعاناة التي عانتها. لا شك ان تلك البرك والآبار كانت عظيمة وفخمة في حينه ولكن لسوء الحظ تم تدميرها بصورة منتظمة بواسطة الوهابيين لحماية بلادهم من الغزوات ، أما الآن فمعظمها خرائب لا أكثر . في طريقي وجدت الماء في موقعين من هذه المواقع، وفيما عدا ذلك وجدت بعض الينابيع وغدران مياه الأمطار. و كنا خلال هذه المرحلة من المسير نجد الماء كل ثالث يوم من السير .

تدريجياً اصبحت انا نفسي مهملاً وتعباً من متابعة أمر مخزون الماء الذي نحمله معنا وتركت الأمر لأتباعي الذين في نفس الوقت اعتمدوا على عبدالرحمن . هذا الأمر تسبب لنا بحالة من الضيق لاحقاً ، وهنا اعتقد

بأهمية ذكر تلك الحالة الآن لإثبات ما الذي يمكن ان تفعله الذلول النجدية .

في احدى الأمسيات اتفقنا على ان نظل لمسافة ثلاثة مسيرات تالية بدون البحث عن مكان للماء ، وان نكتفي بحمل الماء الذي يكفي لأربعة ليال. في حينه كان يبدو ان هذه الكمية كبيرة جداً؛ لقد كانت معظم قِرب الماء جافة وممزقة ، و لا يعتمد عليها كلية . لم اعر الأمر اي تفكير في بدايته حتى انني انزعجت من اعتراضات الشيخ محمد ونصرالله والآخرين فطلبت ان يُعمل شيء اذا تأكد عدم فائدة القرب بعد ترقيعها و خياطتها وتجربتها. كان هذا العمل ضروريا جداً لأننا بالتأكيد سنكون بلا ماء خلال مسيرنا الرابع . والآن برز عمق المأزق الذي نعيشه. لقد لاحظت عبدالرحمن الذي كان يدور جيئة وذهابا ويبدو انه مهموم وحزين جداً فسألته مالأمر؟ . فقال " حسناً ، ان رأسي مليء بالافكار المخيفة " . فسألته :" اي أفكار مخيفة ؟"، فأجاب " عن الماء طبعاً اذ من يدري اذا ما كنا سنجد الماء مساء الغد" .

حينئذ اتضح لي الأمر فتساءلت : " وكيف يحدث ذلك " واستمررت بالقول : " لقد طلبت ماء لمدة ثلاث ليال فتم تأمينه لمدة أربع كأحتياط ، والآن اصبح الأمر مشكوكا فيه و حتى في الأمل بوجود الماء ايضاً بعد المسير الخامس . انه لأمر صعب واذا فهمت ما تعنيه فإنه اذا لم نجد ماء خلال مساء الغد فإننا تقريباً نعتبر في عداد المنتهين " .

" كلا " رد عليّ عبدالرحمن " ان الوضع ليس سيئاً الى ذلك الحد، واذا تستمع اليّ فإنني سأشرح لك مأزقنا. لقد اعتقدت اننا سنقابل احد البدو المعروفين لدينا ويعتمد عليه ، ونستفسره عن الاتجاه الذي سنجد فيه ماء نستطيع استخراجه ، ولكن هذا الأمر لم يحدث، اذ اننا لم نقابل انساناً في هذه الصحراء بإستثناء الراكب الوحيد الذي عثرنا عليه امس واخذناه معنا

مؤقتاً . انه لا يعرف شيئاً ولا يمكن للمرء أن يعتمد على اقواله و رواياته. إنني اعتقد بأننا وعلى مسافة تبعد تسع ساعات ونصف من المكان الذي نضرب فيه مخيمنا مساء اليوم سنجد الماء ، وهذا يعني وصولنا اليه مساء الغد. واذا لم يحدث ذلك فلا زال الأمل موجود، فأنت والحمدلله معك ماء يكفيك هذا المساء وخيولك الاثنا عشر بعدوها السريع لثماني اوعشر ساعات (١٠٠كم) ستوصلك الى موقع ماء بالتأكيد. أما جمال قافلتك فإنها لا تحتاج لأي ماء، والرجال الذين لن يذهبوا معك على الخيول فإن الأمر يتطلب منهم ان يتحملوا العطش لمدة ٢٤ساعة . ان هذا الوضع المؤلم ليس ضرورياً ،اذ أن لدي اقتراح سأقترحه عليك . كما ذكرت سابقاً فإنه معنا ما يكفينا من الماء لهذه الليلة . والآن عليك بتحضير الذلول الذي أهداه لك ابن رشيد، احدى نياق البريد ، وان يركبها "غطه Ghata " دليلنا الأول ويسري الليل حتى يصل المكان الذي افترض وجود الماء به مساء الغد، فإن وجد الماء عاد بالأخبار لنا وسنسير عندها باطمئنان تام وسنكون عند الماء مساء الغد . اما اذا لم يجد الماء فإننا بالتالي سنتجه الى وجهة اخرى حيث توجد بئر على مسافة عشر ساعات من مخيمنا تتوافر بها المياه في جميع الأوقات ولكن لكي نصل اليها علينا ان نغير إتجاهنا كما ان عمق الآبار هناك لسوء الحظ يصل الى ٢٧٠متراً [١] وعملية استخراج الماء الكافي منها يتطلب عملا شاقا لما يقارب اربع وعشرين ساعة ".

لقد نفذ عبدالرحمن مقترحه هذا بالفعل ، وعند صباح الغد الباكر تم إيقاضي وإعلامي بخبر عودة "غطه" وان الماء موجود بوفرة في المكان الذي ذهب لإستكشافه والذي افترضنا وجود الماء به ، وكان ذلك من حسن الحظ .

(١) لقد شاهدت شخصياً بئر ذات عمق ٢٢٠ متراً وقمت بقياسها بكل عناية .

إن أداء ذلك الذلول ، الذي قطع حوالي ١٠٠ كم في سبع ساعات من الساعة العاشرة مساء وحتى الساعة الخامسة صباحاً، كان كالتالي:لقد كان الذلول ولعدة أيام مضت يتناول الماء كل خمسة الى ستة أيام ويقطع يومياً مابين ٤٥ كم الى ٥٠ كم . وعليه فإن ذلك الذلول كان قد قطع مابين ١٩٥و٢٠٠كم خلال ٣٢ ساعة . و قطع في سفرته لمدة سبع ساعات مسافة١٠٠ كم بالأضافة الى المسافة المعتادة التي قطعها خلال النهار ، والمسافة التي قطعها مرة أخرى مع القافلة الى البئر التي وصلناها عند الساعة الرابعة عصراً من اليوم التالي.

في يوم ٢٢ مارس ١٨٩٣ كنا بالفعل على مرأى من القباب الذهبية "لمشهد علي"، لكن رغم ذلك كان لا بد لظاهرة جوية في آخر لحظة ان تضعنا في امتحان عسير . اذ هبت عاصفة رملية غير عادية لا مثيل لها او على الاحرى ربما زوبعة رملية فوق قافلتنا . لقد تساءلت عما اذا كانت هذه العاصفة من نوع رياح الخماسين او ما شابهها من عواصف الصحراء السيئة التي يحكى عنها ، والتي تنقض انقضاض لهب النار. في حالة العاصفة التي هبت علينا فقد بدت وكأنها حائط اسود يقترب ببطء . لقد رأيناها عن بعد لبعض الوقت (ربما ساعة ونصف الساعة) قبل ان تصلنا، وحاولنا عندئذ ان نهرب منها ، او نتجنب طريقها. وفي النهاية كانت الكتلة السوداء قد وصلتنا . لقد كانت كتلة متماسكة من الرمال ولربما الكهرباء ايضاً. بالطبع كان لا بد لنا ان نصمد في سكون ، وان نتحمل الاصطدام بها بقدر المستطاع . لقد ناخت الجمال من تلقاء نفسها ووضعت انوفها الى قاع الأرض قدر استطاعتها، وكانت فيما يبدو مرتعبة حيث انها ارغت وازبدت طوال الوقت بصورة مخيفة ، اما الخيول فقد لففنا رؤوسها بمعاطف ، ونحن

انفسنا قبعنا مختبئين خلف الجمال . لقد كان الظلام دامساً لدرجة ان المرء لا يستطيع ان يميز اي شيء على بعد خطوات قليلة وكان ازيز الرياح قوياً لدرجة ان الانسان لا يستطيع سماع او فهم شيء. لقد تراقصت إبرة البوصلة ، مثلما يحدث عادة عند الهزات الأرضية ، وفي كل الاتجاهات حتى ان إدراك الاتجاه قد ضاع منا . لحسن الحظ ، لم تستمر هذه العاصفة وانجلت خلال ساعتين والا كنت قد فقدت بعضاً من اتباعي وحيواناتي بسبب الاختناق او الاجهاد. بعد انجلاء العاصفة وصلنا فرحين الى بلدة " عين سعيد" وهي طراز من القلاع الفارسية المتهدمة ، وكان يقطنها بعض العرب والفرس ، والذين يشتهرون بعملهم بالزراعة واعمال السلب والنهب .

لقد حاولت الحصول على شعير لحيواناتي المرهقة من أهل البلدة مقابل مبلغ جيد من المال ولكنهم ضنوا عليّ بذلك ،، فهددتهم بأنني سوف اقوم بانتزاع ذلك الشعير المخزون بالقوة ، وفي حالة الضرورة سأقوم باستدعاء الجنود الاتراك للمساعدة في ذلك. في البداية لم يصدق هؤلاء التعساء تهديدي ،فهم بأنفسهم قد اعتادوا على سلب المساكين من البدو الذين لا حول لهم ولا قوة والذين يتجهون بحيواناتهم الى "مشهد علي". حينما تم تناقل التهديد مع حلول الظلام ، بأن البوابة ستدك وان النار ستشتعل فيها ، انطلق واحد منهم الى الخرائب لكي يبيع لي الشعير الذي ارغب فيه ، والذي من أجله قمت بدفع سعرً – رغم انه لا يستهان به – كان الى حد ما اقل من ذلك الذي عرضت في البداية .

حضر اليّ لاحقاً من كان يدعي انه شيخ عصابة النهب هذه الى خيمتي، لكي يتناول القهوة . لقد كان شنيعاً ومفزعاً و كان مجدور الوجه، لحيته المخضوبة بلون الحناء ، والتي منهاعرفت انه فارسي ، ذات مظهر

منفر. لقد عددتّ عليه بالتفصيل ما يعيبه وكم اضـا ع من خلال غبائه .

إن بحر النجف والذي يشـاهد على كل الخرائط لم يعد له وجود منذ أمد بعيد . لقد كان في زمانه نتاجا للحوض الجديد المتسع لنهر الفرات . لقد ظلت كل من " الحلة "او "بابل القديمة" في العشر سنوات الأخيرة بدون وجود الماء بصورة منتظمة وكادت ان تنتهي الى صحراء قاحلة لولا تشييد قناة " الهندية" وبالتالي السد في الوقت المناسب لتنظيم مسائل المياه. لقد تم هذا الانجاز بواسطة مهندسين فرنسيين في عام ١٨٩١ بتكليف من الحكومة التركية وقد كلفها اذا صدق تقديري اكثر من اربعة ملايين مارك ، وقد انقذ هذا المشروع جزء كبير من العراق لكي لا يتحول الى قفار، وبالتالي ادى الى تحويل الكثير من المفاهيم. كان الهدف الواضح لإنشاء "سد الهندية " هو ان يحافظ نهر الفرات على حوضه ومصبه القديم عند الحلة (بابل) وان يوفر فائضاًمحدداً من الماء ليصب في هذه القناة.

عندما يتأمل المرء كل هذه المفاهيم حول المياه، لا يجد المرء مناصاً من التأمل معها بمسألة بابل، كما وردت في روايات هيرودوت والاخرين، وكيف ان هذه المدينة العالمية العظيمة كانت محصنة بسدودها المنيعة والفريدة التي كان لا يمكن هزيمتها بدون تحويل مجرى النهر. وكما ظلت التفاصيل غير واضحة ومعروفة ظل المرء يستفسر لا ارادياً عما اذا كانت قناة الهندية لم تكن بكل بساطة سوى الحوض المزعوم لمجرى النهر التقليدي ،الذي أنشأه "سايروس" لغزو بابل ، أو لربما وجده قائماً مسبقاً فقام بتوسيعه واستغلاله ؟

في يوم ٢٣مارس ١٨٩٣ تم نصب خيامنا قبالة بوابة مدينة "مشهد علي" حيث وجدت نفسي مجدداً ضمن نطاق السلطة التركية .

يبلغ عدد سكان مشهد علي ٢٢٠٠٠ نسمة ، ولكن هذا العدد يرتفع

احياناً الى ٠٠٠, ١٠٠ بسبب الزوار الفرس الذين يأتون لزيارة العتبات المقدسة . و يحيط بهذه المدينة جدار عال وحصين من اركانها الاربعة حتى ان الانسان لا يرى اي شيء منها اذا كان خارجها لا من قريب و لامن بعيد الا تلك الاقواس الضخمة للقباب الذهبية لقبر "علي" ولذلك يتصور الانسان انه امام كتلة ضخمة شامخة في الصحراء وكأن المدينة صندوق حجري ضخم ذو اربعة اركان .

لقد كان من المعتقدات الشائعة ان كل من يموت في مشهد علي او كربلاء ، او حتى الذين يُقبرون بهما من المسلمين الشيعة فإنه يرفع الى ملكوت السموات بكل تأكيد. ولذلك فإن المقيمين في هذه المدينة أكثر غنى بسبب المال الكثير الذي ينساب الى هذه البلدة من اولئك الذين يسكنونها وهم ينتظرون موتهم او الذين تكون قبور ذويهم المهمين من الفرس بها. ففي الماضي كانت اعداد الجثث التي تحضر الى هنا سنوياً تبلغ عدة آلاف ، ولكن السلطان الحالي امر بوقف احضار الجثث الحديثة اليها بسبب الكوليرا. لذلك انتشرت ظاهرة تهريب الجثث من فارس الى هذه المدينة رغم الصعوبات والتكلفة الباهظة لذلك العمل. وقد رأيت شخصياً وانا في الطريق ما لا يقل عن ١٠او ١٢ جثة فارسية مهربة. وفي العادة يتم تغليف وتعبئة الجثة بالزعفران، ولهذا السبب فإنه ليس من الحكمة ، في بغداد ، او عموماً في هذه المنطقة ككل ان تمنع نفسك من تناول او استخدام هذا البهار لأنه من المؤكد ان هذا الزعفران قد تم الحصول عليه بعد استخدامه لعدة شهور في المحافظة على جثة فارسي فارق الحياة .

تقع مدينة مشهد علي (النجف) ، و كذلك مدينة كربلاء ، تحت السيطرة التركية ، وجميع الادارة والجنود الهمجيين الموجودين في هاتين المدينتين

يتبعون لها. ولكن هاتان المدينتان و للأسباب السابق ذكرها تظهران وكأنهما مدينتان فارسيتان ذواتا درجة عالية من التعصب الديني. وكنموذج لهذا التعصب سأروي قصة حدثت بالفعل قبل وصولي مشهد علي حيث حدثت مواجهة بيني وبين الوقاحة الفارسية التي تعم كل علاقة هنا. لقد كان هناك بعض من نساء البدو الفقيرات يقدن قطيعاً من الأغنام بنية بيعها في المدينة، ولكن وقبل وصولهن، اعترض طريقهن ستة من القصابين الفرس وامسكوا بهن .وبدون ان يكون لهن حق في التفاوض حول الاسعار كان على هؤلاء الاعرابيات ان يبعن في الحال أغنامهن، وبالطبع بالثمن الذي يحدده القصابون انفسهم ولو تطلب الأمر استخدام القوة. لقد كنت في طريقي عندما افلت بعض من هؤلاء النسوة البدويات من ايدي مغتصبيهن واندفعن الينا يطلبن النجدة. وقد وافقت على اصطحابهن بأمان مع اغنامهن الى المدينة، الشيء الذي فسره القصابون بالتبجح وان ذلك تدخل سافر في شؤونهم الخاصة. لقد تطور الأمر الى تبادل الكثير من الألفاظ والتي على أثرها قررت انه لا بد لهذه العصابة الوقحة من نيل العقاب. في سرعة خاطفة وقبل ان يتمكنوا من استخدام سكاكينهم تم التغلب عليهم و ربط كل منهم بوثاق. وللمزيد من السخرية والاستهزاء بهم ولفعالية افضل تم تجريدهم حتى من ملابسهم (يعتبر هذا الشيء في الشرق أمر مهينا للغاية)، وكلما ازدادت اقوالهم خشونة ووقاحة امرت بضربهم دون رحمة حتى هدأوا نسبياً. وبسبب هذه الحادثة اصبحت بالطبع في مشهد علي شخصاً غير مرغوب فيه.

لقد تسبب الأمر بإثارة نوع من الاضطراب ورئي ارسال ساع في الحال الى الحاكم العام الذي كان في رحلة تفتيشية الى كربلاء، وكذلك خبر

الى القسطنطينية وطهران للإبلاغ عن العمل الذي قمت به والذي كان متسماً بالعنف . لكن هذه الخطط سرعان ما تبخرت عندما التقيت بقنصل ايران الذي شرحت له الأمر ، وكيف ان تحقيقاً كبيراً في هذه القصة سيشكل خطورة على الفرس الذين يقيمون في مشهدعلي. وانني ايضاً سأقوم بالابلاغ في القسطنطينية عن الظروف التي تسود المدينة ، وكيف ان الفرس الذين يعيشون هنا كضيوف يتصرفون كأسياد ، وانهم في جوار بوابة المدينة يعتدون على النساء كما يحلو لهم ، والكثير مما شابه ذلك. وفي مثل تلك العلاقة المثيرة والمتوترة دخلت المدينة المتعصبة مرتين فقط لأن مخيمي قد اقمته خارجها.

ان دخول غير المسلمين الى مسجد علي محرم تحريماً باتاً ، لذلك لم أهتم بأمر زيارة المسجد كثيراً لكي لا امنح الفرس مجرد الاحساس بالنصر و يضنوا عليّ بذلك. لكن المسؤولين الاتراك وبمبادرة منهم و ليظهروا ليّ حسن النية قرروا ان يدعوّني الى مشاهدة اكبر قدر ممكن من المسجد . وهكذا قاموا بإعداد نوع من المنصة قبالة بوابة المسجد ، حيث تم تقديم القهوة لي في ذلك المكان. هناك جلست مع المدعوين لهذا اللقاء مع المسؤولين ووجهاء المدينة ، وتحت حراسة الدورية القريبة من العسكريين الاتراك.

لقد تمكنت من مشاهدة الكثير من موقعي ذلك وقد كان مطابقاً للوصف الذي روي عنه . تتكون الثروة الرئيسية لمسجد علي ـ عدا القبة الذهبية ـ من صفائح أو الواح ذهبية سميكة تتخلل الموزاييك المزين به بهو المسجد الداخلي والمدخل وما الى ذلك ،او معلقة عليه. ان الجزء الأكبر من هذه الثروة الهامة كان منشأه الهند ، والحقيقة انها قد سُلبت عام ١٨٣٨ بواسطة نادر شاه من دلهي.

عندما امسكت بأحد الصفائح المعلقة التي كانت بالقرب مني لكي اختبر سمكها، بدأ بعض الأوغاد الواقفين بإحداث ضجة كبيرة وصاحوا من كل جانب بأنني إنسان سيىء بل انني حقاً أُماثل في السوء الوهابيين. اكفهر وجه عبدالرحمن الذي كان يجلس بجانبي وامتقع لونه من هذه الإساءة التي لحقت به وبكل نجد اكثر مما لحقت بي. لكن لم يكن هناك شيء كثير ليفعله حينئذ تجاه ذلك، حيث انه هنا بالنسبة للاتراك ليس بوهابي على الإطلاق ، بل على الأكثر مسلم سني متشدد.

اخيراً أخرجني قائد الدرك في رفقة حراسة مشددة من المدينة عائداً الى مخيمي. لقد كان عبدالرحمن فرحاً ومبتهجاً جداً لإثارتي لحنق الفرس بإمساكي للوحهم الذهبي، للدرجة التي طلب مني طلباً خاصا ، وهو ان يقبل عينيّ على الطريقة العربية.

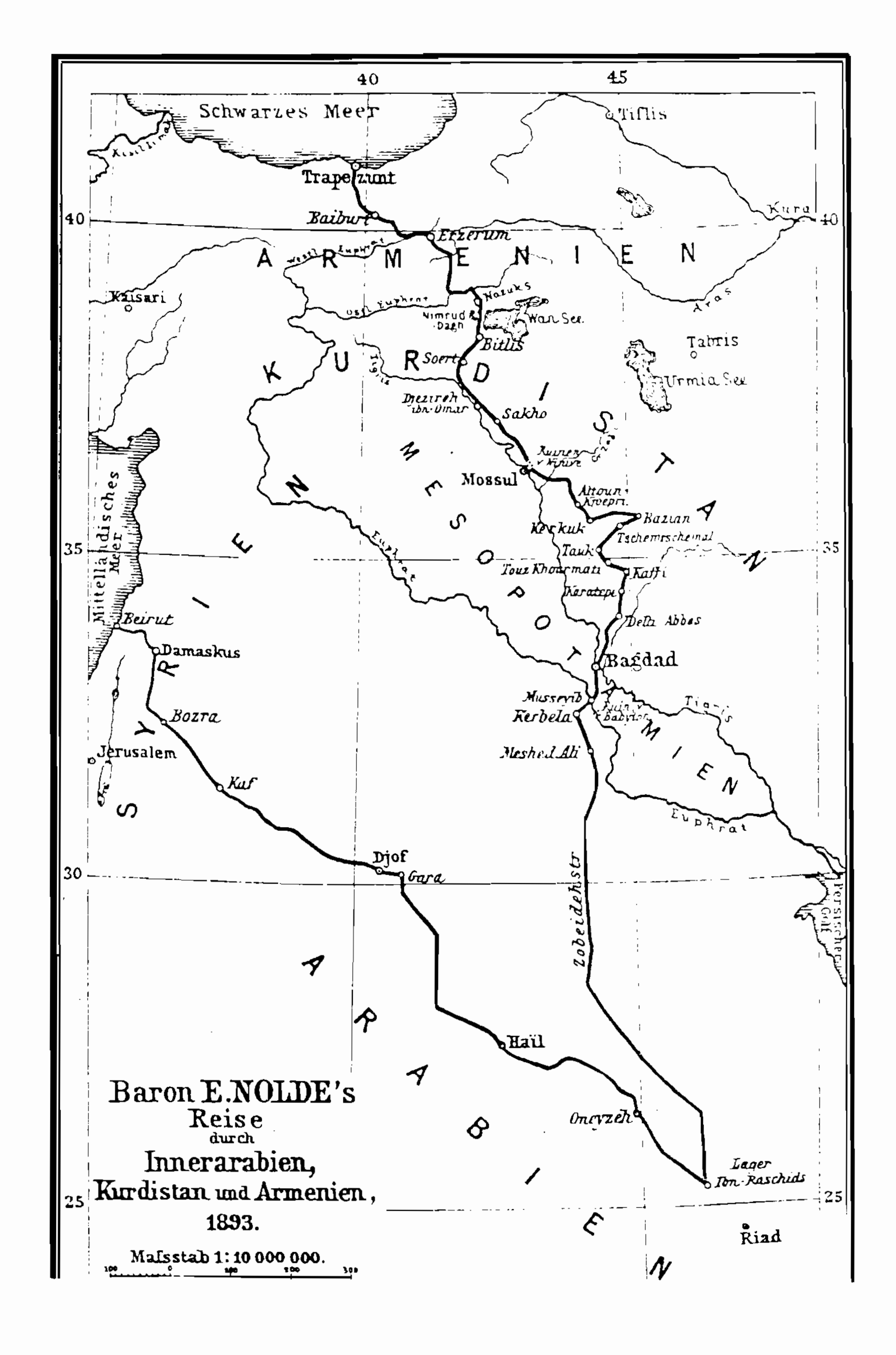
إنني و كالتزام مبدئي لا اتخذ موقفاً دينياً متحيزاً من منطلق عاطفي، واتعامل مع مثل هذه الأمور بتحفظ شديد. ولكن التعصب الفارسي الشيعي لهو حقاً مما يشق مرارة الإنسان ، اذ انه ازدراء وإحتقار غير عادي ضد كل شيء ، وان رأيهم تجاه غيرهم يشهرونه في تحد ولا يتركون اي مناسبة تمر دون إظهارهم له.

في يوم ٢٥ مارس غادرت مدينة " مشهد علي"

ملاحق



ادوارد نولده



خريطة توضيحية لرحلة نولدة

المصادر والمراجع

اولاً : اللغة العربية :

البادي ، عوض . *الرحالة الاوروبيون في شمال الجزيرة العربية : بلاد الجوف ووادي السرحان* .الرياض : دار بلاد العرب للنشر ، ١٩٩٧.

دانتسيغ، ب. م. . *الرحالة الروس في الشرق الأوسط* . ترجمة وتعليق معروف خزنه دار، بغداد : دار الرشيد للنشر ،١٩٨١.

فاسيلييف ، الكسي. *تاريخ العربية السعودية* .موسكو : دار التقدم ، ١٩٨٦.

عبدالقادر، عبدالشافي غنيم . "الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين "، في كتاب: *مصادر تاريخ الجزيرة العربية ،الجزء٢ .الرياض :جامعة الرياض* ،١٩٧٩ .

العثيمين ، عبدالله الصالح. *تاريخ المملكة العربية السعودية* ، ط٣، الرياض : خاص،١٩٩٠.

ثانياً: اللغات الاجنبية :

Euting ,Julius. *Tagbuch einer Reise in innerarabien.*Leiden: Brill,1896.

Hogarth, David George .*The Penetration of Arabia : Record of the Development of Western Knowledge concerning the Arabia Peninsula*. New york:frederick A. Stokes Co, 1904.

Huber,Charles. *Journal d'un voyage en arabie* (1883-1884).

Nolde, Baron Eduard . *Reise Nach Innerarabien ,Kurdistan und Aremenien 1892*. Braunschweig: Druck undVerlag Von Friedrich Vieweg und Sohn,1895.

Ward, Philip . Ha'il : *Oasis city of saudi Arabia*.Cambridge:The Oleander Press,1983.
Winstone, H.V.F. *The Illicit Adventure*.London:Jonathan Cape,1982.